تأملات في سورة الكهف

جمع وتأليف :
وائل حسين الخليلي (صب لبن)

تأملات في سورة الكهف

جمع وتأليف : وائل حسين الخليلي

قرأت كتاب الأستاذ وائل حسين يوسف الخليلي (صب لبن) الموسوم ب(تأملات في سورة الكهف)

ولقد أيقنت أن الرجل قد أوسع أمّات كتب التفسير قديمها وحديثها بحثا، وكأني به قد عايش المؤلفين ردحا من الزمن فصال في كلامهم وجال في أفكارهم، قاطفا أطايبها وأعذبها.

فطوبى لك أستاذنا الفاضل وأنت تخوض غمار هذا العمل العظيم خدمة لكتاب كلام ربنا العظيم راجيا الله أن يجزيك الجزاء العظيم عسى الله أن يجعل هذا العمل الرائع في ميزان حسناتك وأن ينفعك به، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الدكتور مصطفى بن صادق الخطيب

الحمد لله أولا وآخرا ، ظاهراً وباطناً ، أشكره على فضله وإحسانه أن أنزل فينا قرآناً يُتلى ، غضاً نديا ، وأرسل فينا محمداً هادياً ونبياً ، وسراجا منيراً ، يبشر

المؤمنين بالقرآن ، وينذر الكافرين بالفرقان ، صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته الكرام ، الذين رفعوا معه وبعده لواء الإسلام للأنام ، حتى ذلت بالحق أعناق اللئام ، وأشرقت شمس الإسلام ، وتبعهم التابعون ، فكانوا في خير القرون ، بذلوا في هذا السبيل المنون ، بددوا دياجير الجهل ، ونشروا العلم ولله الفضل ، فأخذنا بإنعامه ممن سبقنا طرفاً ، مقتدين بآثارهم ، رافعين لأعلامهم ، في تأملات قرآنية لا تخرج عن مقالهم ، ولا تنكر فضل أقلامهم ، ولا مقام أحلامهم ، سائلين الله السداد على منوالهم ، معترفين بالقصور عن جوادهم ، يكفينا شرفاً تتبع آثارهم ، والاستراط في صراطهم ، والله الموفق وهو يهدي السبيل .

قال تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف ١]أول الأمر وآخره يبدأ بالحمد فأول ما يجدر بالعبد الاعتناء به الحمد لله وشكره على ما أسبغ علينا من نعمه التي لا تحصى، ومن أعظم النعم انزاله للكتاب ، ولما كان لا يتنزل الكتاب إلا على من تحققت به معاني العبودية قدم ذكر عبده على كتابه ، فقال : **(على عبده الكتاب)** واختصه بأعلى منزلة ألا وهي العبودية ، فقال بعبده ، فكان صلى الله عليه وسلم أهلاً لنزول الرسالة عليه بما أوتي من جليل الخصال ، وكريم الفعال ، فالأرض لا يستزرع بها حتى تكون صالحة لإنبات الزرع ، وكذلك فإن ما جرى عليه حال كل الرسل أنهم يبعثون أولا ثم ينزل عليهم الكتاب . ووصف كتابه بأنه ليس له عوج ، وتابع بالقول قيما ، لا تكرارا، كما قد يتوهم البعض بل للتأكيد على أنه ليس به عوج على الإطلاق ، وعندما قال **(قيما)** أشار إلى أنه ليس به عوج فحسب بل قائم على الكتب قبله أو العباد فمن كان به عوج من الخلق عن جادة الصواب فالقرآن كفيل بتقويمه إن أخذ به ، ونعم القيم القرآن الكريم على العباد .

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا (٤) ﴾ [الكهف ٢-٤] ، قدم الله النذارة على البشارة ، إذ أن الإنسان بين خوف ورجاء، فعلى السالك إلى الله تقديم الخوف على الرجاء أثناء سيره إلى الله ، ولا يسع المخاطب إلا قبول الخطاب وقد علم صدق الخبر والمخبر ، ولما كان المعاند المكذب حطيط الشأن بكفره توعده الله بالعذاب الشديد من لدنه ، ولم يأتِ على ذكره حطاً لشأنه ، لمخالفته للرسالة ، والتفكير السوي الموافق الفطرة، مع وجود الحجج العقلية ، والمعجزات البينة ، ومع عدم ذكر أهل الشقاء المعذبين وتوعدهم بعذاب مُنَكَّرِ اللفظ ، مع هذا أتى الله على ذكر المؤمنين بلفظ مُعرَّف ، ووعدهم بالبشرى ، وفي الوقت الذي توعد الله الكافرين بعذاب شديد ، بلفظ مُنَكَّر في قوله :**(بأساً شديدا)** ، لا يعلم مداه وشدته إلا الله تعالى ، بشر المؤمنين بأجر حسن لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، فهناك نكَّر على أهل العذاب عذابهم للشدة ، وهنا نكَّر على أهل الايمان أهل طاعته نعيمهم لعظم اللذة ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

(ماكثين فيه أبداً) ، مكث المؤمنون في الدنيا قليلا ، فجزاهم الله في إيمانهم وعملهم الصالح في النعيم مكثا لا ينقطع أبدا ، وكرر سبحانه الإنذار وخص به من ادعى له ولدا ، فإن قلت بماذا أنذرهم قلنا بما ورد في الآية السابقة في قوله **(لينذر بأساً شديداً من لدنه)** يعني عذابا شديدا ،أنذر الله سبحانه بالعذاب أولا ، ثم بين في هذه الآية من يستحقه ، وهم الذين دعوا لله ولدا ، ومن حِلم الله وتمام عدله وعظمته أنه يكرر الانذار للمخالفين مرارا مع إمهاله لهم ليثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن قولهم ، ويؤوبوا إلى ربهم ، وإلا كان يكفيهم الانذار لمرة واحده ، ليستحقوا العقاب بالمخالفة .

قوله سبحانه: ﴿**مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)**﴾ تكلموا بما لا علم لهم به ، لإن من شرائط العلم ، وجود الدلائل القاطعة ، والبراهين الساطعة ، أما اختلاق الأقوال وتأليفها فلا يعتبر علما البته ، ولكم يكون الخطر جسيما عندما يكون اختلاق الكلام وافتراء الكذب على الله عز وجل ، فإن من يعش تحت حكم سلطان عادل ويفتري عليه الكذب يعتبر في نظر الناس مجترئا ظالما ، فكيف يكون بربكم حال من يجترئ

على خالق الخلق ، ومجري أرزاقهم ؟

ومن تمام جرأتهم التفوه بما اختلقوه من الكذب ، يؤكد الله سبحانه جرأتهم عليه بقوله **(كبرت كلمة) (تخرج من أفواههم) (إن يقولون إلا كذبا)**، فبعد هذا الإنذار مع الإمهال لا إعذار ، وبعد هذه الجرأة استحقوا العذاب ، أعاذنا الله واياكم من سخط الله .

﴿**فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)** ﴾

البخع : القتل والإجهاد ، يكشف القرآن لنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم الشديد على ايمان من يدعوهم للإسلام ، حتى قال الله لنبيه ، لعلك يا محمد قاتل نفسك حزنا لعدم إيمانهم ، فسلى الله نبيه بالكشف عن خبث ضمائرهم التي دلت عليها أقوالهم ومعتقداتهم الكاذبة ، وجرأتهم باختلاق الكذب .

﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)**﴾ **[الكهف ٦-٨]** تذكرنا هذه الآية بقوله تعالى من سورة آل عمران في قوله :﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران ١٤]**

فما على الأرض من هذه الزينة المذكورة يقع الاختبار به للعباد ، فعلى العبد أن يعلم تمام العلم أن هذه الزينة بلاء يبتلي الله به عباده لينظر كيف يعملون ، فمن أخذها بحقها وقدم أمر الله عليها كان أسبق وأحسن ، وفي هذا يتفاوت العباد ، والهلاك كل الهلاك في الركون إلى هذه الزينة والشهوات ، وترك أمر الله اكتفاءً عنه بها ، فإذا علمت هذا علمت أيضا أن الناس يتفاوتون في هذا الاختبار ، وعلمت أن من كان لربه أطوع ، وله يتقرب ، نال أعلى المنازل والدرجات من حسن الجزاء ، ولا يكون العمل حسنا إلا بالإتيان به على الوجه الذي يرضي الله، ضمن ما شرع ، فمحط قبول العمل احسان القيام به على الوجه الذي يرضي ربنا سبحانه وتعالى ، ثم قال عز وجل : **﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾**

ما على الأرض سيؤول حاله إلى التراب فالصعيد يعني التراب ، وجرزا يعني الأرض البلقع التي لا شيء عليها ، تذكيرا للعباد أن ما على الأرض من زينه سيؤول حاله إلى الفناء ، فالعاقل لا يؤثر الفاني على الباقي لعلمه أنه سيتحول عنه يوما ، ولا يستمسك بالدنيا إلا من غلبه جهله بحقيقتها ، والذي قرر هذه الحقيقة إنما هو خالقها ، فاتخذها يا عبد الله طريقا لآخرتك وإياك أن تتخذك بزينتها عبدا لها فتنقطع بك السبل فتهلك بشهواتها ولذاتها الفانية .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف ٩]

ليس نبأ أصحاب الكهف من أعجب آيات الله سبحانه وتعالى مع ما فيها من العجب أن ينام فتية ثلاث مائة وتسع سنين ثم يستيقظوا وهم يظنوا أنهم ما لبثوا إلا يوما أو بعض يوم ، نعم لا حدود لقدرة الله عز في علاه ، ولله من الآيات في أخبار من سبق من العجائب ما يذهل العقول ، فقد شق الله لنبيه القمر على مرأى من مشركي قريش ، وأسرى الله بنبيه من مكة إلى

بيت المقدس وعرج به فوق السموات السبع وبقي فراشه دافئا لم يبرد حتى رجع ،واخرج نبيه إبراهيم عليه السلام من النار وجعلها بردا وسلاماً عليه ، وأحيى لبني إسرائيل مقتولهم بقطعة لحم أمرهم الله أن يضربوه بها ليقول لهم من قتله ، وأعطى لسليمان عليه السلام فهم لغات الحيوان ، فيخاطبه الهدهد ، ويسمع النملة ، ويحضر له عرش بلقيس في أقل من طرفة عين ، وأعطى الخضر من العلم ما أعجز موسى عليه السلام عن الصبر معه ، ففي أخبار من سبق ما الله به عليم ، فسبحان الله في آياته ، وعجائب قدرته .

{الكهف والرقيم } الكهف الفتح في الجبل والرقيم الكتاب ، مرقوم : مكتوب ، وهذا موافق للغة ، وجاء عن ابن عباس بسند صحيح في صحيح البخاري وأيده الإمام البغوي في تفسيره وهو بأنه لوح من رصاص كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف لما توجهوا عن قومهم ولم يدروا أين توجهوا .

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف ١٠]

هؤلاء فتية فروا بدينهم لما تغلب الكفار ، ولما لم يكن لهم في قومهم إلا الكفر أو القتل ، اختاروا التحول عن قومهم هرباً بإيمانهم بالله تعالى ، فكهف الايمان بالله خير من قصور الكفر به سبحانه ، وحياة خشنة في طاعته سبحانه خير من دِعة فيها غضبه ، تعلمنا هذه الآيات أن أعلى ما يجدر بالمرء المحافظة عليه إنما هو عقيدته وإيمانه بربه ، يهون في سبيله ترك الأوطان ومفارقة الأحباب ، وتحمل شظف العيش على لذته ، ومع دخولهم للكهف يسألون الله الرحمة والرشاد ، إذ لا تغني الأسباب عن التوكل على الله وسؤاله التوفيق والعناية ، حتى لو كان الفرار في سبيله طلبا لمرضاته ، وعلى هذا كان الأنبياء والصالحون وخيرة أبطال

المسلمين وقادتهم يُعملون الجوارح بالطاعة ، ويُعملون القلوب بتمام التوكل عليه ، والاستعانة به سبحانه وتعالى

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا (١٢)﴾ [الكهف ١١-١٢]

(فضربنا) جاءت بصيغة الجمع للمتكلم للتعظيم وهذا كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى:**(إنا أنزلناه في ليلة القدر)** وكقوله:**﴿نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾ [الإنسان]**وقول سبحانه : **﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر ١١-١٢].**

أنامهم الله عز وجل ، وضرب عليهم النوم ، بحجاب يمنع نفوذ الأصوات إلى أسماعهم ، وإنما خصت الآذان بالذكر لإن نفاذ الأصوات اليها يمنع النوم ويفسده ،**(سنين عددا)** أبهم الله عز وجل المدة في الآية هنا وقال سنين عددا ، على سبيل التكثير ، فالمقام هنا يستوجب التعظيم لله بعظيم صنعه في الفتية وضرب النوم عليهم سنين عديده ، ولهذا ذكر عز وجل نفسه أولاً بصيغة الجمع للمتكلم ، ولم يحدد المدة لنومهم ابتداء بل أخبرنا أنها سنين كثيرة ، نظرا لعظم الفعل وتعظيم الفاعل ، ومعلوم أن النوم بما يتعدى ما يحياه الإنسان بأَضعاف أضعاف أعمار البشر أمر مذهل فضلاً عن أنه لا يعاني صاحبه العطش أو الجوع أو المرض ، نعم هذا أمر عظيم يستوجب منا تعظيم الصانع سبحانه وتعالى .

ومن تمام رحمة الله تعالى بأهل الكهف حين سألوه الرحمة والهداية من أمرهم ، أنه عصمهم من شرور قومهم فلم يصلوا إليهم، ورفعَ كبير العناء عنهم بالنوم ، وأجرى عليهم أجورهم وهم نائمون مرتاحون ، أسأل الله الرحمن الرحيم أن يغمرنا برحمته ، وييسر لنا أمر هدايته ، فلتطب نفوس أهل الايمان والفرار إلى الله تعالى

، ببشائر عنايته ، وحتى لو أصاب العبد المكروه في سبيل إيمانه ودعوته في الدنيا ، فإن الله يكون بذلك قد خبأ له من فيض رحمته ، وعظيم أجره لاحتسابه - ما يرجو معه أهل العافية يوم القيامة أن لو ردت أجسامهم للدنيا ونالها ما نال أهل الابتلاء من المؤمنين في الآخرة ، لما يرون من كرامتهم وعظيم أجرهم عند الله تعالى ، عن جَابِرٍ قَالَ : **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ "**. وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ عَنْ مَسْرُوقٍ قَوْلَهُ : شَيْئًا مِنْ هَذَا حكم الحديث: حسن رواه الترمذي ، يكفيهم غمسة واحدة في الجنة لتنسيهم ما كانوا فيه من بؤس وبلاء ، روى مسلم في صحيحه عن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابن آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ : يَا ابن آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ "**.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾ [الكهف ١٣-١٤]

.قلنا سابقا أن المتكلم عندما يتكلم عن نفسه بصيغة الجمع فإنما يريد بذلك تعظيم نفسه للمخاطب ، فضمير المتكلم **(نحن)** هنا لله تعالى للتعظيم ، وقد يرد الحديث عن النفس بلفظ الجمع ويراد منه التوكيد لا التعظيم كما قال البخاري في صحيحه

" العرب تؤكد فعل الواحد فتجعله بلفظ الجميع ليكون أثبت وأوكد " ، ويكون الحديث عن النفس بلفظ الجمع أيضا للإخبار عن نفسه ، وأهل مقالته كما يقول العلماء **(نحن)** نقول أو نحن نبين أو نحن نجيب **(نقص)** : يقص الله على عباده أحسن القصص للتفكر ، وأخذ العبرة ، والقصص: سرد خبر طويل ، ولكمْ تُحدث القصص في النفس من الآثار البليغة عندما تكون صادقة هادفة ، فكيف إذا كانت هذه القصص من أحسن القصص إذ أنها في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف إذا كان القاص لها إنما هو الله تعالى الذي أنزل كتابه بالحق ،**قال تعالى :{إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) } آل عمران .**

(نبأهم) قال نبأهم ولم يقل خبرهم لأن النبأ أبلغ في الإخبار من الخبر ، إذ أنه يتضمن الشأن العظيم فالنبأ : الخبر الذي له شأن عظيم ، ومنه اشتقاق النبوة، لإن النبي مخبر عن الله تعالى ويدل عليه **قوله تعالى: " نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون " وقوله تعالى: " عم يتساءلون عن النبأ العظيم "** فوصفه بالعظمة وصف كاشف عن حقيقته .

وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء وحق الخبر الذي قال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب كالخبر المتواتر .

إذن فنحن في خبر أهل الكهف في شأن عظيم ، فالله عز وجل يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم ، وقال نبأهم ولم يقل خبرهم لعظم شأن هذا الخبر ، وقال بالحق ، **(نحن نقص عليك نبأهم بالحق)** إعلاما لنا بإنه سبحانه منزه عن العبث في ذكر القصص ، ففضلا عن كونها من الأخبار الصادقة التي لا يتطرق لها الشك والريب ، فهي كذلك دروس وعظات وعبر للسائرين إلى الله ، تعلمهم الصبر

والثبات على الحق استكمالاً لميراث النبوة الذي جاؤوا به ، فدونكم إخواني الخير كله في قصص القرآن الكريم تأملوها واستقوا منها الدروس ، **قال تعالى :﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف ١١١]**

قوله تعالى :{ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (١٣) } اجتمعت في هؤلاء الفتية فتوة السن ، وفتوة الايمان ، لم يفتتنوا بشبابهم وقوتهم ، بل كان شبابهم عونا لهم على الإيمان ، وتحمل تكاليفه ،وترك الأوطان والأهل والدنيا بأسرها من أجله ، فالله الله في إيمانهم ، واتصالهم بربهم على حداثة سنهم ، وقد فضَّلوا دخول كهف الايمان على الأخذ بزهرة الدنيا الغَرور ، آثروا الايمان بربهم وطاعته على طاعة قومهم الكافرين ، أوكلوا جل أمرهم لربهم فزادهم على إيمانهم هدى منه ورحمه ، وبهذا يكون حال كل مؤمن أخلص التوجه إلى الله ، وقطع عن نفسه كل العلائق التي تحولُ بينه وبين ربه ، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، **عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) فمن يطمع في الزيادة فعليه بالإنابة ، ولزوم الاستقامة ، حتى يُبصِّره الله سبل الهداية ، ويذلل له مشاقها .**

قوله سبحانه : { وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا (١٤)}

ربطت الشي -والضم عن الأخفش -: أي أربطه وأربطه َربطاً شدَدته ، وفي المثل :استكرمت فاربط ، والرباط: ما تشدِّ به القربة والدابة

ويقال: ربط لذلك الأمر جاشاً: أي صبر نفسه وحبسها عليه ، ورجل ربيط الجأش أي شديد القلب كأنهِ يربط نفسه عن الفرار.

قوله تعالى : (وربطنا على قلوبهم) معناه ألهمناهم الصبر على الايمان بربهم ، فانعقدت قلوبهم وانحبست عن الجزع ، فثبتت ونبتت ، برباط رباني من الله تعالى ،لتشد بعرى الايمان ، إذ أن الربط لا يكون إلا بشيئين مختلفين بواسطة ، تقول ربطت الدابة بالجدار ، وتقصد بذلك أنك ألزمتها بالجدار وشددتها إليه بوثاق ، وتقول شدَّ عليه سرواله ، وتقصد بذلك أنه ألزم السروال جسده بحزام أو رابط ، قال تعالى في سورة الفتح : **{ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا} [الفتح ٢٦]** وفي الحديث عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ ". فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ : " نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ". رواه الترمذي

فإذا كان خير خلق الله وأتقاهم لربه يسأل الله الثبات لقلبه على الايمان والطاعة ، مع ما عُلم من عصمته ، فحري بنا ملازمة سؤال الله الثبات لقلوبنا لتنال شرف **(وربطنا على قلوبهم)** ، ولن تنال شرف الربط حتى تحقق مقام : **(وكانوا أحق بها وأهلها)** ، وإذا تحصل للمؤمن الربط على قلبه بعرى الايمان هانت عليه نفسه في الله ، وانقادت لرضاه ، إذ أن القلب في الجسد كالأمير في الرعية ، متى كان قويا صحيحا ، صحت له رعيته ، وانقادت له بالخير لكل خير ، حتى لو نالها الأذى فإنها تستعذبه وقد استقام لها أميرها ، وصح في العمل لما ينفعها ، وخص الربط على القلب بأهل الايمان ، وجعل الشد على القلب لإهل الكفر والعصيان ، فارتبطت قلوب المؤمنين بالصبر والثبات على إيمانها وثقتها بالله تعالى ، وشدت

قلوب الكفار بغرورها وكبرها ، قال تعالى في دعاء موسى عليه على الكفار : **{وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨)} (سورة يونس)** فسبحان من ربط قلوب أهل الايمان بإيمانهم به ، وخص ذلك بنفسه ، برباط لا يعلم مكنونه سواه سبحانه وتعالى ، غير أننا نلمس أثر هذا الرباط بصدق الثبات والصبر ، فدليل الربط على القلب - القيام لله بأمره ، يبدو هذا بقول الفتية: **{وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤)} [الكهف ١٣-١٤]**

قاموا بما وقر في قلوبهم من حقائق الايمان وسط قومهم ، فنالوا جوائز التثبيت ، وجمعوا توحيد الربوبية إذ **(قالوا ربنا رب السموات والأرض)** وتوحيد الأُلوهية بقولهم (لن ندعوا من دونه إلها .. الآية) ،لا معه ولا دونه ، ولو قالوا غير هذا ، وشاركوا قومهم في كفرهم لكانوا مفرطين في البعد عن الحق، فمعنى الشطط الإفراط في البعد عن الحق ، وجاء سياق الآية ليؤكد هذه الحقيقة ، **(لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا)** اللام في لقد للتأكيد ، وقد : تفيد التحقيق اذا جاءت مع الفعل الماضي، وقد جاءت هنا معه ، وإذن : حرف جزاء وجواب ، فأي يقين لهؤلاء الفتية في معرفة جريمة الكفر ! ، ومدى الإفراط في البعد عن الحق فيها ، وقد جاءت على لسانهم بقول الله تعالى بصيغ التأكيد والتحقيق والجواب .

{هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)}

أدرك الفتية رحمهم الله أن العقائد تؤخذ بالأدلة القطعية ، وأدركوا أن قومهم لم يأتوا بحجة على معتقدهم ، وأدركوا أن أعظم الظلم الإشراك بالله تعالى بالفِريةِ

عليه سبحانه ، وشتان من يبني اعتقاده على الحجة والسلطان وبين من يؤلف الكذب على الله بالإشراك دون أدنى حجة بذلك، وسميت الحجة بالسلطان لقوتها على دفع الباطل أو لوضوحها وإنارتها أو لحدّتها ونفوذها، والنفي يتوجه إلى القيد والمقيد أي لا حجة ولا إنزال، والمعنى أن الاشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل ، ولك أن تعلم أن الإشراك بالله ظلم عظيم ، وخطر جسيم ، **قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)}[سورة لقمان]، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ : قَالَ : لَمَّا نَزَلَتِ : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ }. قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }.) رواه البخاري** ، وقال سبحانه في التمثيل لمن أشرك به : **{وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)} [الحج]** ، ثم إن هؤلاء الفتية لم يثنهم عن مخالفة قومهم بطش الحاكم وكثرة الخبيث ، فهم رحمهم الله كانوا قلة مستضعفة، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ **قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ١٠٠]** ، يقول الثعالبي في تفسيره الجواهر الحسان في الآية: " لفظ عامٌّ في جميع الأمور، فيتصوَّر في المكاسِب، وعدد النَّاس، والمعارفِ مِنَ العلوم ونحوِهَا، فالخبيثُ مِنْ هذا كلِّه لا يُفْلِحُ ولا يُنْجِبُ، ولا تحسُنُ له عاقبةٌ، والطَّيِّبُ وإنْ قَلَّ: نافعٌ جميل العاقبة، ويَنْظُرُ إلى هذه الآيةِ **قوله تعالى: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً [الأعراف: 58]** ، **والخبث:** هو الفساد الباطنُ في الأشياء حتى يظن بها الصَّلاح، وهي بخلافِ ذلك. وقوله سبحانه: فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ: تنبيهٌ على لزوم الطَّيِّب في المعتقَدِ والعملِ، وخُصَّ أولو الألباب بالذِّكْر لأنهم المتقدِّمون في مَيْز هذه الأمور، والذين لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم."

فأي حكمة وأي لب لهؤلاء الفتية على حداثة سنهم رحمهم الله في مخالفة قومهم حتى قالوا في قومهم :**{ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15)}** جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير : " أَيْ: هَلا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا؟! **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يَقُولُونَ: بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ " وروى البخاري في صحيحه :" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَأَلْتُ، أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : " أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ "**. .

وقول الفتية في حق قومهم :**{ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ}** على سبيل التعجيز لقومهم ، فلم ينزل الله تصريحاً بالإشراك به سبحانه ، ولن يجوز في حقه تعالى ذلك ، وإنَّ ما كان من قومهم إنما هو اختلاق الكذب وافترائه على الله تعالى ، وفي هذا افتضاح أمر قومهم ، وبيان خسرانهم ، وهنا يأتي قرار المفاصلة والمفارقة بقوله سبحانه :

{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16)} ، لما لم يأمن الفتية على أنفسهم ببقائهم في قومهم ، فروا بدينهم وعبادتهم معتزلين قومهم ، يقول ابن كثير :"فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هُرابًا إِلَى الْكَهْفِ، فَأَوَوْا إِلَيْهِ، فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وتَطَلَّبهم الْمَلِكُ فَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ. كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ [مُحَمَّدٍ] ﷺ وَصَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ، حِينَ لَجَأَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الطَّلَبِ، فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ رَأَى جَزَعَ الصِّدِّيقِ فِي قَوْلِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟ " ، ويجدر بنا هنا أن نبين أمراً بالغ الأهمية : إن قرار اعتزال الفتية لقومهم لم يأتِ إلا بعد قيامهم لربهم وسط قومهم معلنين صحة

اعتقادهم ، وداعين لقومهم إلى الايمان بالله، **قال تعالى : {وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا} [الكهف ١٤]** ، فبقيامهم لله بما صح من إيمانهم نالوا جوائز **(وربطنا على قلوبهم) ،(وزدناهم هدى) ، (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم رشدا)** وهذا يدلك على مدى خطر الخطب الذي تعرض له الفتية ، وحاجتهم إلى ربط القلب وتثبيته أمام ما يعصف بهم لمخالفة قومهم ، وحاجتهم الشديدة إلى رحمة الله بهم وقد فقدوا النصير الا الله جل جلاله الذي آواهم إلى الكهف ، ونشر عليهم رحمته وأمنه، يقول عبد الكريم الخطيب في تفسيره " فى **قوله تعالى: «إِذْ قامُوا»** .....وهؤلاء الفتية، لم يقفوا عند حدّ النيّة، بل **«قاموا»** أي تحركوا، وعملوا، فربط الله على قلوبهم تلك التي اتجهت إليه، وشدّ على هذه النيّات التي انعقدت على الايمان به..

وإذ يتجه الفتية إلى الله هذا الاتجاه القوىّ الخالص من شوائب الشرك، وإذ تفيض قلوبهم إيمانا يباعد بينهم وبين قومهم، فلا يشاركونهم فيما هم فيه من ضلال الوثنية وسخافاتها- عندئذ يجدون أنهم غرباء في قومهم، معرضون للسخط، والازدراء، ثم القطيعة، ثم الطرد، وربما القتل! إنهم قلة صالحة في مجتمع فاسد.. فليطلبوا لهم وجها في الأرض.. والا ساءت العاقبة، ووقع البلاء، وتعرضوا للفتنة في دينهم، الذي ارتضوه وآمنوا به.

وتناجى الفتية فيما بينهم، وارتادوا مواقع النجاة والسلامة لهم، ولدينهم..

إنه الفرار إلى أرض غير هذه الأرض، والهجرة إلى بلد غير هذا البلد! ولكن كيف يكون هذا، والقوم لهم بكل طريق؟

إن على مقربة من المدينة، وعلى الطريق الذي نووا أن يأخذوه إلى موطنهم الجديد- كهفا يعرفونه. فليتخذوه سترا لهم، يختفون به عن أعين القوم أياما، حتى يفتقدهم

القوم.. ثم يطلبونهم، ثم لا يجدون لهم أثرا! فإذا سارت الأمور على هذا التقدير.. خرجوا من الكهف- وقد نامت عنهم أعين الرقباء- ثم تابعوا السير إلى حيث ينتهى بهم المطاف إلى الجهة التي يريدونها.."

فسبحان من كتب للفتية النجاة والأمن وهم بين أظهرمن يتربص بهم ، وبعثهم بعد فناء قومهم ، **{إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }.**

{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17)}

يخاطب الله نبيه بتصور المشهد ، بقوله :**{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ}** وباستقراء الآيات التي ورد بها لفظ **(وترى)** نجده يتكرر في الآيات تستثير التعجب أو التأمل ، أو التفكر في عظيم صنع الله تعالى ، ومن أمثلة التعجب **قوله تعالى : {وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ [المائدة]** وهذه الآية نزلت في اليهود والمنافقين الذين يدَّعون الايمان ثم يسارعون في الإثم والعدوان وأكل الحرام والأعجب منه أن علماءَهم وأحبارهم لا ينهونهم عن ذلك ، "قال الطبريُّ : كان العلماءُ يقُولُون: ما في القرآن آيةٌ هي أشَدُّ توبيخاً للعلماءِ من هذه الآية، ولا أخْوَفُ عليهم منْها."

ومن التأمل **قوله تعالى :{ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥)**

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾ [الشورى ٤٤-٤٦]

وكَمَا **قَالَ تعالى:{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الْأَنْعَامِ:٢٧، ٢٨] .**

والتأمل ليس مقتصراً على حال أهل النار ، بل قد يرد في حال أهل الايمان تعظيماً لحالهم ، ورفعاً لشأنهم **قال تعالى : {وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ} [المائدة ٨٣]**

وكقوله سبحانه: {مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا (٢٩)} [الفتح]

أما التفكر في عظيم صنع الله فكقوله **: {وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [من الآية ٥ الحج]** ، وكقوله: **{وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ} [النمل ٨٨]**

فحيثما ورد لفظ الرؤية ثمت دعوة لاستثارة الفكر والتأمل فانتبه تصب خيراً ان شاء الله

نعود إلى الآية : **{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِۗ}**

من عجيب صنع الله في أهل الكهف أن تميل الشمس عنهم أول النهار ، وهذا معنى **(تَزَاوَرُ)** ، وتتركهم آخره ، وهذا معنى **(تَقْرِضُهُمْ)** ، قال الطبري : " وإنما معنى الكلام: وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم، يقال منه: قرضت موضع كذا: إذا قطعته فجاوزته" ، **(وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ)** أَيْ: فِي مُتَّسَعٍ مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تَمَسُّهُمْ؛ إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَحْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَثِيَابَهُمْ قَالَهُ ابن عَبَّاسٍ.

{ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ} قال الطبري رحمه الله فيها : " فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتية الذين قصصنا عليكم أمرهم من تصييرناهم، إذ أردنا أن نضرب على آذانهم بحيث تزاور الشمس عن مضاجعهم ذات اليمين إذا هي طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا هي غَرَبت، مع كونهم في المتسع من المكان، بحيث لا تحرْقهم الشمس فتُشحبهم، ولا تبلى على طول رقدتهم ثيابهم، فتعفَّن على أجسادهم، من حجج الله وأدلته على خلقه، والأدلة التي يستدل بها أولو الألباب على عظيم قدرته وسلطانه، وأنه لا يعجزه شيء أراده" وقال القاسمي في محاسن التأويل في قوله تَعالى: **﴿ذَلِكَ مِن آياتِ اللَّهِ﴾** "أيْ: إرْشادُهم إلى هَذا الغارِ الَّذِي جَعَلَهم فِيهِ أحْياءً، وشُعاعُ الشَّمْسِ والرِّيحِ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، لِتَبْقى أبْدانُهُمْ، آيَةً مِن آياتِهِ الدّالَّةِ عَلى عِنايَتِهِ وتَوْفِيقِهِ لِلْمُخْلِصِينَ" وقال الثعالبي : "وقوله سبحانه: ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ الإشارة إلى الأمر بجملته." يقصد رحمه الله خبر أهل الكهف برمته .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) بين الله تعالى للإنسان طريق الخير وطريق الشر ، وبين أن هداية العبد وضلاله لا تخرج عن مشيئته ، وبين أن الإهتداء والتوفيق لا يكون إلا به ، ومنه **قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ**

أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس ٣٥] ، وكقوله :**{أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية ٢٣]** ، عن عباس **﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾** يقول: أضله الله في سابق علمه.

فمن سبق في علم الله أنه آخذ بأسباب الهداية فهو المهتدي ، ومن سبق في علمه أنه يضل فلا مرد له من الله ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ، فالعبد يتخير لنفسه بعلم الله ومشيئته ، وحذار أن يَظنَ ظانٌ أن الله يختار الهداية لفلان ، والضلال لعلان ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما الاختيار للعبد بمشيئة الله وعلمه ، لإن الله لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ، والله عز وجل أرسل الرسل للإيمان بهم ، وبما أرسلوا به ، وكان يُبعث النبي في قومه دون تخصيص ، وبعث نبينا صلى الله عليه وسلم للناس كافة **قال تعالى : { وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)} [سبأ]** ، ولبيان مسألة الهداية والضلال بشكل أوفى ننقل بعض كلام الشيخ تقي الدين النبهاني إذ يقول رحمه الله : " وأما الهداية والضلال فإنه مما لا شك فيه أن الإنسان ، هو من يهتدي ، وهو من يضل ، فإذا اهتدى فإنما توصل للهداية بنفسه في عقله ، وتفكيره، وسعيه، وعمله ، وإذا ضل فإنما يصل الضلال بنفسه ، في عقله وتفكيره ، وفي سعيه وعمله ، فهو يهتدي مختاراً ، ويضل مختاراً ، دون أي إجبار ، كأي فعل من أفعاله الداخلة ضمن الدائرة التي يسيطر عليها ، فالهداية والضلال ليسا من نظام الوجود، ولا من الأفعال التي ليست في مقدور الإنسان ولا قبل له بدفعها ، ولا من الأفعال التي يقتضيها نظام الوجود ، ولذلك لم تكن من الدائرة التي تسيطر عليه ، بل هي من الدائرة التي يسيطر عليها ..... على أن كثيراً من آيات القرآن جاءت صريحة في أن الهدى والضلال

من أفعال الإنسان ، وصريحة في نسبة الهدى والضلال إلى العبد **قال تعالى : (فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ)[يونس١٠٨] ، (فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ)[الزمر ٤١] ، (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ)[ص٢٦] ، (لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ)[المائدة١٠٥] ، (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ) [البقرة ١٥٧] ، (قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ) [سبأ٥٠]** ..... فهذه الآيات صريحة الدلالة في نسبة الهداية إلى العبد ، وأنه هو الذي يهتدي، وهو الذي يضل ، وهذا يعني صراحة أن الإنسان هو الذي يهتدي ، وهو الذي يضل ." ويورد رحمه الله تعليقاً آخر وهو أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس ، فيثيب المهتدي ، ويعذب الضال ،" فإذا كان الله هو الذي يهدي الإنسان ، وهو الذي يضله ، وليس الإنسان نفسه ، فإن حساب الله للناس وتعذيبهم على الضلال يكون ظلماً، لإنه حساب لهم على شيء لم يفعلوه هم ، ولإن تعذيب الأشخاص من قِبل الله على فعل فعله هو ، وليس هم ، ولا شك أن مثل ذلك ظلم ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولهذا كان الإنسان هو الذي يهتدي ، وهو الذي يضل ، وكانت محاسبته على ذلك عدلاً ، لإنها محاسبة له على فعل فَعَلهُ هو ، وكان تعذيب الله للضالين عدلاً ، لإنه تعذيب لهم على أفعالهم . " ويجيب رحمه الله على الآيات التي تدل على نسبة الهداية والضلال إلى الله ، كالتي مرت معنا في الآية ، أنها تعني " أن الله هو الذي خلق الهداية والضلال من العدم ، وليس معناها أن الله هو الذي باشر فعل الهداية ، فقوله : **(قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ) [يونس٣٥] ، (وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَانَا ٱللَّهُۖ) [الأعراف٤٣]** ، ..... وغير ذلك من الآيات ، لا تعني أن الله باشر الهداية ، وإنما تعني أن الله خلق الهداية ." ... ويجيب رحمه الله على الآيات التي اقترنت فيها الهداية والضلال بمشيئة الله وإرادته بإن " معناها أنه لا يهتدي أحدٌ جبراً عن

الله ، ولا يضل أحد جبراً عن الله ، وليس معناها أن إرادة الله هي التي فعلت الهداية ". كقوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ **[النحل ٩٣]** ، وربما نكون قد أسهبنا في التعليق على هذه الآية ، وما مبتغانا في ذلك إلا حصول الفائدة ، واستكمال الفهم ، فعذراً إن كان الإسهاب مملاً ، فظني بأُولي الفهم والنهى الإعذار ، وإن لم يكن ثمَّ اختصار جاء في محاسن التأويل للقاسمي : "﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ**﴾ أيْ: إلى الحَقِّ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ: ﴿فَهُوَ المُهْتَدِ ومَن يُضْلِلْ﴾ أيْ: يَخْلُقُ فِيهِ الضَّلالَ لِصَرْفِ اخْتِيارِهِ إلَيْهِ: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا**﴾ أيْ: ناصِرًا يَلِي أمْرَهُ فَيَحْفَظُهُ مِنَ الضَّلالِ: ﴿**مُرْشِدًا**﴾ أيْ: يَهْدِيهِ إلى ما ذَكَرَ."

وما حصل لإهل الكهف من التوفيق بحفظ إيمانهم من الفتنه ، وأنفسهم من الأذى والقتل إنما كان بفضل الله ثم هُداهم إليه سبحانه وتعالى .

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)}

تكلم بعض المفسرين جزاهم الله خيراً في حسبان يقظة أهل الكهف وتعليل ذلك أن أعينهم كانت مفتحة ، وهذا قول في غاية الضعف ويفتقر إلى الدليل ذكر ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز :" قالَ القاضِي أبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ:

ويُحْتَمَلُ أنْ يَحْسَبَ الرائِي ذَلِكَ لِشِدَّةِ الحِفْظِ الَّذِي كانَ عَلَيْهِمْ، وقِلَّةِ التَغَيُّرِ، وذَلِكَ أنَّ الغالِبَ عَلى النُوّامِ أنْ يَكُونَ لَهُمُ اسْتِرْخاءٌ وهَيْئاتٌ تَقْتَضِي النَوْمَ، ورَبَّ نائِمٍ عَلى أحْوالٍ لَمْ تَتَغَيَّرْ عن حالَةِ اليَقَظَةِ، فَيَحْسَبُهُ الرائِي يَقْظانًا وإنْ كانَ مَسْدُودَ العَيْنِ، ولَوْ صَحَّ فَتْحُ أعْيُنِهِمْ بِسَنَدٍ يَقْطَعُ العُذْرَ كانَ أبْيَنَ في أنْ يَحْسِبَ عَلَيْهِمُ التَيَقُّظَ."

إلا أن يصاحب فتح أعينهم تقلب كثير أو متقارب ، لإن من تراه ساكناً مفتح العينين فإنك لا تشك في موته ، لا يقظته ، وحتى لو قربنا القول وجمعنا فتح أعينهم مع

التقلب يعترضنا قوله تعالى: **(وَهُمْ رُقُودٌ)** أي نيام ، ورد في لسان العرب لابن منظور :"

رقد رقد: الرُّقاد: النَّوْم. والرَّقْدَة: النَّوْمَةُ." ، وفي مقاييس اللغة لابن فارس : " (رَقَدَ) الرَّاءُ وَالْقَافُ وَالدَّالُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّوْمِ؛ وَيُشْتَقُّ مِنْهُ. فَالرُّقَادُ: النَّوْمُ. يُقَالُ رَقَدَ رُقُودًا."

وفي مختار الصحاح للرازي : " الرُقادُ: النَوْمُ.

وقد رَقَدَ يَرْقُدُ رَقْداً ورُقوداً ورُقاداً وقوم رُقودٌ: أي رُقَّدٌ والرَقْدَةُ: النَوْمَةُ." وفي عمدة الحفاظ للسمين الحلبي :" رقد: **قوله تعالى: ﴿وهم رقود﴾ [الكهف: ١٨]** جمع راقد، نحو قاعد وقعود، والرقاد: النوم المستطاب من النوم القليل " وعادة البشر في رقادهم إغلاق أعينهم لا فتحها ، وبهذا يضعف القول بإن أعينهم كانت مفتحة حتى لو كانوا يتقلبون لذكر الله تعالى لنومهم ، وقد يعترض معترض فيقول : في بعض حالات الإغماء تكون عيني المغمى عليه مفتوحه ، في حالة تشبه حالة النائم ، فلمَ لا تكون حالة أهل الكهف كحالة المغمى عليه ؟ وفي الرد على هذا التساؤل نقول بتوفيق الله : يقال في اللغة لمن هذه حاله : مغشياً عليه ، أو مغمى عليه ، ولا يقال فيه أنه راقد ، لإن الرقاد مسمى للنوم فلا ينطبق ، فضلاً عن أن الرقاد كما جاء في عمدة الحفاظ هو : " النوم المستطاب من النوم القليل " ، وذِكرهُ تعالى **(وَهُمْ رُقُودٌ)** لرقاد أهل الكهف مع أن نومهم كان طويلاً إنما هو بيان لقدرة الله تعالى أن حالهم بنومهم مئات السنين كان كحال من نام قليلاً ، فسبحان الله في عظم قدرته ، وحفظ أوليائه ، وبهذا نحتمل في حسبان يقظتهم أنهم من حسن الهيئة ، ونضارة الوجه ما يظن معه الظان أنهم أيقاظ ، خلافاً لحال النائم الذي ترتخي مفاصله ، وتتغير هيئته ، واقتصر بعض من علل حسبان يقظتهم بكثرة التقليب ، والحقيقة أن حسبان يقظتهم والله أعلم إما أن يكون من شدة الحفظ وحسن الهيئة التي كانوا عليها

أو من التقليب إما بالكثرة أو الانتظام أي بتقليبهم معا بانتظام مما يشعر بيقظتهم ، ولا يُغلبُ ابن عطية حسبان يقظتهم بالتقليب لاعتباره الواو في قوله تعالى :**(وَنُقَلِّبُهُمْ)** للاستئناف بخبر جديد ، جاء في تفسيره رحمه الله : " ورَأتْ فِرْقَةٌ أنَّ التَقَلُّبَ هو الَّذِي مِن أجْلِهِ كانَ الرائِي يَحْسَبُهم أيْقاظًا.

وهَذا -وَإنْ كانَ التَقَلُّبُ لِمَن صادَفَ رُؤْيَتَهُ دَلِيلًا عَلى ذَلِكَ- فَإنَّ ألْفاظَ الآيَةِ لَمْ تَسُقْهُ إلّا خَبَرًا مُسْتَأْنِفًا" .

وعليه فإني لا أنفي احتمال حسبان يقظتهم بما مر معنا آنف الذكر ، ولكني أغلب القول أن حسبان يقظة أهل الكهف آت من حسن الهيئة ، ونضارة الوجه ، واشتداد الجسم ، ما يشك معه من يقف عليهم أنهم نيام ، وهذا حال المرء أول الاستلقاء للنوم ، وفي هذا من عجائب قدرة الله ما يستوجب التعظيم ، فلم ينل منهم الزمان شيئاً على طول المدة ، وكأني بقول الله لنبيه : وتحسبهم يا محمد من حسن الهيئة ، وجمال الصورة - أنهم أيقاظ ، لم تغيرهم سني النوم الطويلة، هذا وإنّا نقلبهم في نومهم كذلك ، وكلبهم باسط الذراعين بالباب أو الفناء لا يتقلب ، ومع هذا لم تأكله الأرض.

وبهذا يضعف القول أن تقليبهم كان لئلا تأكل الأرض أجسامهم ، فدونهم الكلب لم يتقلب ولم تأكله الأرض . فسبحان الله في عظيم آياته ، وتعدد آلائه ، ما وقفت معه عقول أهل النظر والتأمل ذليلة عن الإحاطة بها ، شاكرة لله على ما أظهر منها . والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى : (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18))

يقول القرطبي رحمه الله في تفسيره : " **قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾** قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ الْوَاوِ. وَالْأَعْمَشُ وَيَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ بِضَمِّهَا.

(لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً) أَيْ لَوْ أَشْرَفْتَ عَلَيْهِمْ لَهَرَبْتَ مِنْهُمْ **(وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)** أيْ لِمَا حَفَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرُّعْبِ وَاكْتَنَفَهُمْ مِنَ الْهَيْبَةِ. وَقِيلَ: لِوَحْشَةِ مَكَانِهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ آوَاهُمُ اللَّهُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْوَحْشِ في الظاهر لينقر النَّاسَ عَنْهُمْ. وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ مَحْجُوبِينَ عَنْهُمْ بِالرُّعْبِ، لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِمْ. وَقِيلَ: الْفِرَارُ مِنْهُمْ لِطُولِ شُعُورِهِمْ وَأَظْفَارِهِمْ، وذكر الْمَهْدَوِيُّ وَالنَّحَّاسُ وَالزَّجَّاجُ وَالْقُشَيْرِيُّ. وَهَذَا بَعِيدٌ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَيْقَظُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ شُعُورَهُمْ وَأَظْفَارَهُمْ كَانَتْ بِحَالِهَا، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى أَظْفَارِهِمْ وَشُعُورِهِمْ. قَال ابن عَطِيَّةَ: وَالصَّحِيحُ فِي أَمْرِهِمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَفِظَ لَهُمُ الْحَالَةَ الَّتِي نَامُوا عَلَيْهَا لِتَكُونَ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ فيهم آيَةً، فَلَمْ يُبْلَ لَهُمْ ثَوْبٌ وَلَمْ تُغَيَّرْ صِفَةٌ، وَلَمْ يُنْكِرِ النَّاهِضُ إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَّا مَعَالِمَ الْأَرْضِ وَالْبِنَاءِ، وَلَوْ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ حَالَةٌ يُنْكِرُهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِ أَهَمَّ."

وجاء في تفسير الطبري : " وقوله: **﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾** يقول: لو اطلعت عليهم في رقدتهم التي رقدوها في كهفهم، لأدبرت عنهم هاربا منهم فارّا، **﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾** يقول:

ولملئت نفسُك من اطلاعك عليهم فَزَعا، لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، ولا تلمِسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآية لمن أراد الاحتجاج بهم عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها.

واختلفت القرّاء في قراءة قوله: **﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾** فقرأته عامة قراء المدينة بتشديد اللام من قوله: **﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾** بمعنى أنه كان يمتلئ مرّة بعد مرّة. وقرأ ذلك

عامة قراء العراق: ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ بالتخفيف، بمعنى: لملئت مرّة، وهما عندنا قراءتان مستفيضتان في القراءة، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب."

وَاخْتَلَف المفسرون فِي أَنَّ الرُّعْبَ كَانَ لِمَاذَا قِيلَ مِنْ وَحْشَةِ الْمَكَانِ.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لِأَنَّ أَعْيُنَهُمْ كَانَتْ مُفَتَّحَةً كَالْمُسْتَيْقِظِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَهُمْ نِيَامٌ.

وَقِيلَ: لِكَثْرَةِ شُعُورِهِمْ وطول أظفارهم ولتقبلهم مِنْ غَيْرِ حِسٍّ وَلَا إِشْعَارٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَهُمْ بِالرُّعْبِ لِئَلَّا يَرَاهُمْ أَحَدٌ.

وقيل : لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ، ولَمْ تَكُنْ عَلِمْتَ بِقِصَّتِهِمْ لَحَسِبْتَهم لُصُوصًا قُطّاعًا لِلطَّرِيقِ، إذْ هم عَدَدٌ في كَهْفٍ، وكانَتِ الكُهُوفُ مَخابِئَ لِقُطّاعِ الطَّرِيقِ .

وقال الرازي رحمه الله في تفسيره :" فَأمّا تَفْصِيلُ سَبَبِ الرُّعْبِ فاللَّهُ أعْلَمُ بِهِ، وهَذا هو الأصَحُّ"

الرعب هو الفزع والخوف ، ولله فيه شؤون فقد يقذف في قلوب أعداء الله من أنصاره ، مع وجود القوة لدى الكفار ، كما كان هذا حاصلاً مع نبينا عليه الصلاة والسلام إذ يقول :نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ". **وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ }** ، والغرض من الرعب إيقاع العقوبة بأَعداء الله في الدنيا ، ودفع شرهم عن أهل الايمان ، ومن الرعب ما يكون لحفظ أولياء الله ، وإمضاء حكمه في وقته ، وهو الذي تمت الإشارة إليه في سورة الكهف ، والله أعلم ، وكأن فيه جواباً لمن قد يسأل : كيف لبثوا في الكهف قرونا مع قربه من القرية ، وحاجة أهل زمانهم للكهوف قديماً ؟ فيقال له : بإن الله قد ألبس أهل الكهف من المهابة ما لا يقربهم معها أحد لو قُدِّرَ له أن يطلع عليهم حفظاً لهم إلى ما قُدِّرَ لهم في وقته ، وأما ما تكلم به البعض بإن الرعب إنما كان لطول أظفارهم وعظم أجرامهم وفتح أعينهم ففضلاً عن انعدام الدليل فيه فإن الرعب الحاصل من الرسول وهو أجمل الناس صورة يؤكد لنا أن الرعب شعور يقذفه الله في قلوب

من يريد لما يريد ، وكثيراً ما ألبس الله من المهابة لأوليائه ما هابهم معها أصحاب القوة والسلطان ، "روى الموفق بن قدامة في الاستبصار أن المقوقس صاحب مصر بعث إلى عمرو أن ابعث لي رسلاً أكلمهم فبعث إليه نفراً منهم عبادة بن الصامت وأمره أن يكون هو المتكلم، وكان عبادة أسود شديد السواد، فلما دخلوا على الملك تقدم عبادة فقال الملك ما فيكم من يتكلم غير هذا؟ فقال القوم هو أفضلنا وأقدمنا صحبة لنبينا، ومع هذا فقد أمّره أميرنا، هو المتكلم، قال فليتقدم إذاً فإنما هبته لسواده فقال عبادة: فإن كنت هبتني لسوادي وقد ولى شبابي وذهبت قوتي فكيف بك لو رأيت عسكرنا وفيه أكثر من ألف أشد مني سواداً واقوى أبداناً وأعظم أجساداً، فطلب منه الملك الصلح فقال عبادة: إنا لا نقبل منكم إلا إحدى خلال ثلاث إما أن تسلموا فتكونوا إخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإما أن تؤدوا الجزية إلينا وتعتقدوا منا الذمة فنقبل منكم ونكف عنكم وإما أن تبرزوا لنا حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فقال الملك: لا تقبلوا غير هذه الخلال؟ فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب السماء لا ورب هذه الأرض لا نقبل منكم غيرها. فقال الملك لأصحابه: ما ترون فيما قال فأبوا. فقال الملك: والله لئن لم تقبلوا منهم إحدى هذه الخلال قبل قتل الرجال وسبي الحريم لتقبلنه منهم بعد ذلك وأنتم راغمون، فصالحهم، ووجه عمر عبادة إلى الشام قاضياً ومعلماً".

قوله تعالى : {وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

(19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)}

كذلك: فإن **(ذا)** اسم إشارة كما قال ابن مالك في الخلاصة: بذا لمفرد مذكر أشر... و(ذا) دخل عليها كاف التشبيه وألحقت بها حرف اللام للبعد والكاف للخطاب قال ابن مالك في الألفية:

ولدي البعد انطقا بالكاف حرفا دون لام أو معه

ومعناها: كالذي سبق، أو كالذي قلت أو فعلت....أو هذا الأمر كذلك أي كالذي قبله.

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره : " كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم من رقدتهم، وأيقظناهم من نومهم، لنعرّفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا في خلقنا، وليزدادوا بصيرة في أمرهم الذي هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله وحده لا شريك له، إذا تبيَّنوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا".

قوله: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ اللام لام الصيرورة قاله الثعالبي ، ليسأل بعضهم بعضا ، **﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾** قال الطبري: " يقول عزّ ذكره: فتساءلوا فقال قائل منهم لأصحابه: ﴿كَمْ لَبِثْتمْ﴾ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم **﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** يقول: فأجابه الآخرون فقالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، ظنا منهم أن ذلك كذلك كان، فقال الآخرون: **﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾** فسلِّموا العلم إلى الله. "

قلت وفي هذا بيان ظاهر أنهم أفاقوا على الحالة التي ناموا عليها ، لا طالت شعورهم ولا أظفارهم ولا تغيرت وجوههم ولا ثيابهم فلم يبل لهم ثوب ، ولا رق لهم عظم ، أو تثنى لهم جلد ، وإلا لأنكر بعضهم بعضاً كما قال المفسرون رحمهم الله ، فسبحان من أرقدهم مئات السنين حتى أفاقوا وهم لا يشكون أنهم ناموا أكثر من يوم بل غلَّبوا على أنفسهم أنهم ناموا بعض يوم ، وفي هذه الآية الربانية من عجائب قدرة الله ما يُعجز اللسان عن التعبير ، ويملؤ الجنان بالإيمان والتفكير ، فقدرة الله ليس لها حدود ، جل ربنا وتبارك في ملكه ، أسأله أن يجعلنا من أهل طاعته وحزبه .

{قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)}

قال الشوكاني رحمه الله : " قالَ المُفَسِّرُونَ: إنَّهم دَخَلُوا الكَهْفَ غُدْوَةً، وبَعَثَهُمُ اللَّهُ سُبْحانَهُ آخِرَ النَّهارِ، فَلِذَلِكَ قالُوا: يَوْمًا، فَلَمّا رَأوُا الشَّمْسَ قالُوا: أوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وكانَ قَدْ بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنَ النَّهارِ، وقَدْ مَرَّ مِثْلُ هَذا الجَوابِ في قِصَّةِ عُزَيْرٍ في البَقَرَةِ ﴿قالُوا رَبُّكم أعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ﴾ أيْ: قالَ البَعْضُ الآخَرُ هَذا القَوْلَ: إمّا عَلى طَرِيقِ الِاسْتِدْلالِ، أوْ كانَ ذَلِكَ إلْهامًا لَهم مِنَ اللَّهِ سُبْحانَهُ أيْ: أنَّكم لا تَعْلَمُونَ مُدَّةَ لُبْثِكم، وإنَّما يَعْلَمُها اللَّهُ سُبْحانَهُ ﴿**فابْعَثُوا أحَدَكم بِوَرِقِكم هَذِهِ إلى المَدِينَةِ**﴾ أعْرَضُوا عَنِ التَّحاوُرِ في مُدَّةِ اللُّبْثِ، وأخَذُوا في شَيْءٍ آخَرَ، كَأنَّهُ قالَ القائِلُ مِنهم: اتْرُكُوا ما أنْتُمْ فِيهِ مِنَ المُحاوَرَةِ، وخُذُوا في شَيْءٍ آخَرَ مِمّا يُهِمُّكم، والفاءُ لِلسَّبَبِيَّةِ، والوَرِقُ الفِضَّةُ مَضْرُوبَةٌ أوْ غَيْرُ مَضْرُوبَةٍ ..... وفِي حَمْلِهِمْ لِهَذِهِ الوَرِقِ مَعَهم دَلِيلٌ عَلى أنَّ إمْساكَ بَعْضِ ما يَحْتاجُ إلَيْهِ الإنْسانُ لا يُنافِي التَّوَكُّلَ عَلى اللَّهِ ".

قلت: وفي قصة أصحاب الكهف من الأخذ بالأسباب ما هو ظاهر ، من الفرار بالدين من أذى القوم ، ودخولهم الكهف للتواري عن الأنظار للتأهب بعدها للسفر ، ثم طلبهم للطعام بما حملوه من وَرِق وتوصية المرسل منهم بأخذ الحيطة والحذر خشية أن يصل إليهم كفار قومهم فيفتنوهم عن دينهم ، ولك أن ترى أن كل هذه الأسباب وُظِّفت للحفاظ على ما اعتقدوه من الايمان بالله عز وجل ، فرُّوا إلى الله فألهمهم بالإيواء إلى الكهف ، فهُمْ قد فضَّلوا ترك حياة التنعم وتحمل وعثاء السفر ، والدخول إلى كهف مظلم على حياة الشرك التي يحياها قومهم ، وفي هذا تنبيه للسائرين إلى الله في تقديم ما لله على ما للنفس من حظوظ ، وعجباً لكل مشتغل بالدنيا وهو يدَّعي الحب لله كيف يُقدِّمُها على أمر ربه ، تضيعُ منه الفروض والحقوق بدعوى الانشغال بأعراض الدنيا الفانية ظناً منه أنه في أمر جلل ، ولو علم هذا وأمثاله لأدرك أن أجلَّ ما يُطلب ويُصرف فيه العمر - طاعة الله تعالى والتقرب إليه بكل ما أمر ، لإن هذا ما خُلِقَ الإنسان من أجله، ولإن هذا ما يصحبه بعد موته ، ويرفعه بالدرجات عند ربه .

قوله: (فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) دليل على أنهم هربوا على عجل من قومهم وإلا لكان معهم من الزاد يكفيهم ، أو لئلا يتنبه القوم إلى عزمهم على السفر إذا تجهزوا والله أعلم ، وأما قولهم للمرسل **(فلينظر أيها أزكى طعاماً)** فمعناه كما غلبه ابن جرير الطبري : الأحلُّ والأطهر إذ يقول رحمه الله : " وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى ذلك: أحلّ وأطهر" ، ومال بعض المفسرين إلى معنى :الأكثر ، تقول: قد زكا مال فلان: إذا كثر، وكما قال الشاعر:

قَبائِلُنا سَبْعٌ وأنْتُمْ ثَلاثَةٌ ... وَللسَّبْعُ أزْكَى مِن ثَلاثٍ وأطْيَبُ

بمعنى: أكثر .

قلت ولا مانع من اجتماع المعنيين في **(أزكى)** وهما : الحِلُّ والكثرة ، لإن مَن هذا حاله لا يفكر بالخروج مراراً لشراء الطعام حتى لا ينكشف أمره ، لهذا يُكثر من الشراء في المرة التي يخرج فيها حتى لا يخرج بعدها مِراراً وتكرارا والله أعلم .

قوله سبحانه:(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)) ، ذكر الطبري في تفسيره :" حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن عكرمة، قال: كان أصحاب الكهف ابناء ملوك الروم، رزقهم الله الإسلام، فتعوّذوا بدينهم، واعتزلوا قومهم، حتى انتهوا إلى الكهف، فضرب الله على سمعهم، فلبثوا دهرا طويلا حتى هلكت أمتهم، وجاءت أمة مسلمة، وكان ملكهم مسلما، فاختلفوا في الروح والجسد، فقال قائل: يبعث الروح والجسد جميعا، وقال قائل: يُبعث الروح، فأما الجسد فتأكله الأرض، فلا يكون شيئا، فشقّ على ملكهم اختلافهم، فانطلق فلبس المُسُوح، وجلس على الرَّماد، ثم دعا الله تعالى فقال: أي ربّ، قد ترى اختلاف هؤلاء، فابعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف، فبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاما، فدخل السوق، فجعل يُنكر الوجوه، ويعرف الطرق، ويرى الايمان بالمدينة ظاهرا، فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلا يشتري منه طعاما، فلما نظر الرجل إلى الوَرِق أنكرها، قال: حسبت أنه قال: كأنها أخفاف الرُّبَع، يعني الإبل الصغار، فقال له الفتى: أليس ملككم فلانا؟ قال: بل ملكنا فلان، فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك، فسأله، فأخبره الفتى خبر أصحابه، فبعث الملك في الناس، فجمعهم، فقال: إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد، وإن الله قد بعث لكم آية، فهذا رجل من قوم فلان، يعني ملكهم الذي مضى، فقال الفتى: انطلقوا بي إلى أصحابي، فركب الملك، وركب معه الناس حتى انتهوا إلى

الكهف، فقال الفتى دعوني أدخل إلى أصحابي، فلما أبصرهم ضُرِب على أذنه وعلى آذانهم، فلما استبطئوه دخل الملك، ودخل الناس معه، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئا، غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية بعثها الله لكم، قال قتادة: وعن ابن عباس، كان قد غزا مع حبيب بن مسلمة، فمرّوا بالكهف، فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظام أصحاب الكهف، فقال ابن عباس، لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاث مئة سنة."

بالرجوع إلى الآية نعلم أن الفتية كانوا يعلمون ما قد يلحقهم من أذى أو قتل في سبيل سلوكهم طريق الايمان ، وكان ظنهم في حيلة قومهم فيهم أمران : القتل أو الإجبار على الارتداد ، ومع كل هذا تمسكوا بإيمانهم ، وهجروا قومهم بعدما صار لهم خياران لا ثالث لهما إن هم أصروا على البقاء في قومهم :(القتل أو الارتداد) ، ففروا إلى ربهم تاركين ما كان يعبد قومهم ، وإن صح القول فيهم أنهم ابناء ملوك الروم فأي عقل لهؤلاء الفتية وأي إيمان وحب لله احتوى قلوبهم ، وما أعظم قول الله فيهم **(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)** يدلك على هذا أن أكثر ما كان يؤرقهم هو الخوف من العود إلى ملة قومهم بقولهم : **(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20))** ، وهذا حال من وجد حلاوة الايمان ، وخالطت بشاشته قلبه ففي الحديث الذي يرويه البخاري **"عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الايمان : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ".**

قوله تعالى :{ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ۖ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)}

جاء في تفسير نظم الدرر للبقاعي في تفسير الآية : " **﴿وكَذَلِكَ﴾** أيْ فَعَلْنا بِهِمْ ذَلِكَ الأمْرَ العَظِيمَ مِنَ الرَّبْطِ عَلى قُلُوبِهِمْ، والسَّتْرِ لِأخْبارِهِمْ والحِمايَةِ مِنَ الظّالِمِينَ والحِفْظِ لِأجْسامِهِمْ عَلى مَرِّ الزَّمانِ، وتَعاقُبِ الحَدَثانِ، ومِثْلُ ما فَعَلْنا بِهِمْ ذَلِكَ **﴿أعْثَرْنا﴾** أيْ أظْهَرْنا إظْهارًا اضْطِراريًّا، أهْلَ البَلَدِ وأطْلَعْناهُمْ، وأصْلُهُ أنَّ الغافِلَ عَنِ الشَّيْءِ يَنْظُرُ إلَيْهِ إذا عَثَرَ بِهِ نَظَرَ إلَيْهِ فَيَعْرِفُهُ، فَكانَ العِثارُ سَبَبًا لِعِلْمِهِ بِهِ فَأُطْلِقَ اسْمُ السَّبَبِ عَلى المُسَبَّبِ **﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾** أيْ أهْلُ البَلَدِ بَعْدَ أنْ كانَ حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَكٌّ في حَشْرِ [الأجْسادِ -] لِأنَّ اعْتِقادَ اليَهُودِ والنَّصارى أنَّ البَعْثَ إنَّما هو لِلرُّوحِ فَقَطْ **﴿أنَّ وعْدَ اللَّهِ﴾** الَّذِي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ بِالبَعْثِ لِلرُّوحِ والجَسَدِ مَعًا **﴿حَقٌّ﴾** لِأنَّ قِيامَهم بَعْدَ نَوْمِهِمْ نَيِّفًا وثَلاثَمِائَةِ سَنَةٍ مَعَ خَرْقِ العادَةِ بِحِفْظِ أبْدانِهِمْ عَنِ الفَناءِ مِن غَيْرِ أكْلٍ ولا شُرْبٍ مِثْلُ قِيامِ مَن ماتَ بِجِسْمِهِ الَّذِي كانَ سَواءً عَلى أنَّ مُطْلَقَ النَّوْمِ دالٌّ عَلى ذَلِكَ كَما قالَ بَعْضُ العارِفِينَ "عِلْمُكَ بِاليَقَظَةِ بَعْدَ النَّوْمِ عِلْمٌ بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، والبَرْزَخُ واحِدٌ غَيْرَ أنَّ لِلرُّوحِ بِالجِسْمِ في النَّوْمِ تَعَلُّقًا لا يَكُونُ بِالمَوْتِ، وتَسْتَيْقِظُ عَلى ما نِمْتَ عَلَيْهِ كَذَلِكَ تُبْعَثُ عَلى ما مِتَّ عَلَيْهِ ، ولَمّا كانَ مِنَ الحَقِّ ما قَدْ يُداخِلُهُ شَكٌّ قالَ تَعالى: **﴿وأنَّ﴾** أيْ ولِيَعْلَمُوا أنّ **﴿السّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها﴾** مُبَيِّنًا أنَّها لَيْسَتْ مَوْضِعَ شَكٍّ أصْلًا لِما قامَ عَلَيْها مِن أدِلَّةِ العَقْلِ ".

وفي هذا أقول : إن بعث الأجساد بعد الموت ، وقيام الساعة ثابت بالعقل والنقل ، أما النقل فلما تظافر من نصوص تثبت البعث ، وقيام الساعة ، وأما العقل فلإن القرآن الكريم أصل هذه النصوص قد ثبت إعجازه بالعقل ، فهو كلام الله تعالى قطعاً الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يقول الشيخ تقي الدين

النبهاني رحمه الله في كتابه نظام الإسلام : "وأمَّا ثُبُوتُ كَونِ القُرآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَهُوَ أنَّ القُرآنَ كِتَابٌ عَرَبِيٌّ جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. فَهُوَ إمَّا أنْ يَكُونَ مِنَ العَرَبِ وَإمَّا أنْ يَكُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَإمَّا أنْ يَكُونَ مِنَ اللهِ تَعَالَى. وَلا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ مِنْ غَيرِ وَاحِدٍ مِنْ هَؤلاءِ الثَّلاثَةِ؛ لأنَّهُ عَرَبِيُّ اللُّغَةِ وَالأسلُوبِ. أمَّا أنَّهُ مِنَ العَرَبِ فَباطِلٌ؛ لأنَّهُ تَحَدَّاهُم أنْ يَأْتوا بمثلِهِ: **(قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)**، وَقَدْ حَاوَلُوا أنْ يَأْتُوا بِمِثلِهِ وَعَجِزُوا عَنْ ذَلِكَ. فَهُوَ إذَنْ لَيسَ مِنْ كَلامِهِمْ، لِعَجْزِهِمْ عَنِ الإتْيَانِ بِمِثلِهِ مَعَ تَحَدِّيهِ لَهُمْ وَمُحَاوَلَتِهِمُ الإتيَانَ بِمِثلِهِ. وَأمَّا أَنَّهُ مِنْ مُحَمَّدٍ فَبَاطِلٌ، لأنَّ مُحَمَّدًا عَرَبِيٌّ مِنَ العَرَبِ، وَمَهْمَا سَمَا العَبقَرِيُّ فَهُوَ مِنَ البَشَرِ وَوَاحِدٌ مِنْ مُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ، وَمَا دَامَ العَرَبُ لَمْ يَأْتُوا بِمِثلِهِ فَيَصْدُقَ عَلَى مُحَمَّدٍ العَرَبِيّ أنَّهُ لا يَأتِي بِمِثلِهِ فَهُوَ لَيسَ مِنْهُ، عِلاوةً عَلَى أنَّ لِمُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أحَادِيثَ صَحِيحَةً وأُخْرَى رُوِيَتْ عَنْ طَرِيقِ التَّوَاتُرِ الَّذِي يَستَحِيلُ مَعَهُ إلاَّ الصِّدْقُ، وَإذَا قُورِنَ أيُّ حَدِيثٍ بِأيَّةِ آيَةٍ لا يُوجَدُ بَيْنَهُمَا تَشَابُهٌ فِي الأُسلُوبِ، وَكَانَ يَتْلُو الآيَةَ المنَزَّلَةَ وَيَقُولُ الحَدِيثَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَبَينَهُمَا اختِلافٌ فِي الأُسلُوبِ، وَكَلامُ الرَّجُلِ مَهْمَا حَاوَلَ أنْ يُنَوِّعَهُ فَإنَّهُ يَتَشَابَهُ فِي الأُسلُوبِ؛ لأنَّهُ صَادِرٌ مِنهُ. وَبِمَا أنَّهُ لا يُوجَدُ أيُّ تشابُهٍ بَينَ الحَدِيثِ وَالآيَةِ فِي الأُسلُوبِ فَلا يَكُونُ القُرآنُ كَلامَ مُحَمَّدٍ مُطْلَقاً، لِلاختِلافِ الوَاضِحِ الصَّرِيحِ بَيْنَهُ وَبَينَ كَلامِ مُحَمَّدٍ. عَلَى أنَّ العَرَبَ قَدِ ادَّعَوْا أنَّ مُحَمَّدًا يَأتِي بِالقُرآنِ مِنْ غُلامٍ نَصْرَانِيٍ اسمُهُ (جَبْر) فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيهِمْ بِقَولِهِ: **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)**. وبِمَا أنَّهُ ثَبَتَ أنَّ القُرآنَ لَيسَ كَلامَ العَرَبِ، وَلا كَلامَ مُحَمَّدٍ، فَيَكُونَ كَلامَ اللهِ قَطْعًا، وَيَكُونَ مُعجِزةً لِمَن أتَى بِهِ. وَبِمَا أَنَّ مُحَمَّداً هُوَ الَّذِي أَتَى بِالقُرآنِ، وَهُوَ كَلامُ اللهِ وَشَرِيعَتُهُ، ولا يَأْتِي بِشَرِيعَةِ اللهِ إلاَّ الأنبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، فَيَكُونَ مُحَمَّدٌ نَبِيًا وَرَسُولاً قَطْعًا بِالدَّلِيلِ العَقْلِيّ. هَذَا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ عَلَى الايمان بِاللهِ وَبِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبِأنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ".

وفي **قوله تعالى: {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ۖ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)}** جاء في تفسير البغوي:" قَالَ ابن عَبَّاسٍ: يَتَنَازَعُونَ فِي الْبُنْيَانِ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَبْنِي عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا يُصَلِّي فِيهِ النَّاسُ لِأَنَّهُمْ عَلَى دِينِنَا وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَبْنِي عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ نَسَبِنَا.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: تَنَازَعُوا فِي الْبَعْثِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: الْبَعْثُ لِلْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ مَعًا، وَقَالَ قَوْمٌ: لِلْأَرْوَاحِ دُونَ الْأَجْسَادِ فَبَعَثَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَرَاهُمْ أَنَّ الْبَعْثَ لِلْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ.

وَقِيلَ: تَنَازَعُوا فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ. وَقِيلَ: فِي عَدَدِهِمْ."

قلت : والأرجح والله أعلم قول ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالى : **(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ۖ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)** ، فقوله :**(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) ، (ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا) ، (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) ، (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)**

-كلها نصوص ودلالات واضحة أن تنازعهم كان في أمر البنيان والله أعلم ، ولا ينكر تنازع القوم في مدة لبث الفتية في الكهف لسابق قول الله تعالى في بداية ذكرهم في سورة الكهف : **{ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا (١٢)} [الكهف ١٢]** وبأي تقدير للمدة تتجلى عظمة الله وقدرته لهما جميعاً ، وكان للقوم تساؤلات كثيرة بشأن الفتية في عددهم وفي لبثهم في الكهف هذه المدة الطويلة ، وعن حالهم فيه حتى انتهوا إلى القول : **(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) ، و (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)** ، لقد كان حدث الفتية(أهل الكهف) في زمانهم حدثاً عظيماً ، وآية مبهرة ، وبرهان جَليٌّ على عظيم قدرة الله ، كيف لا وهو عبور

بالزمان بمئات السنين كأنه يوم أو بعض يوم ، تتوقف فيه الأجساد عن الفنا ، والأثواب عن البِلى ، كيف لا وقد توالت الأجيال زمن القوم والفتية في الكهف على مقربة منهم ، والقوم في غفلة عن الكهف وأهله ، قد أحاط الله سبحانه وتعالى الفتية بعين عنايته ، وألطاف حفظه ، ومنع عنهم كل الأذى وهم في رقادهم يتقلبون .

قوله تعالى :{ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)}

يقول ابن كثير في تفسيره : " يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَحَكَى ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا قَائِلَ بِرَابِعٍ، وَلِمَا ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿**رَجْمًا بِالْغَيْبِ**﴾ أَيْ: قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ، كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ، وَإِنْ أَصَابَ فَبِلَا قَصْدٍ، ثُمَّ حَكَى الثَّالِثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ**﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا احْتِيَاجَ إِلَى الْخَوْضِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بِلَا عِلْمٍ، لَكِنْ إِذَا أَطْلَعَنَا عَلَى أَمْرٍ قُلْنَا بِهِ، وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفَنَا. * * *

وَقَوْلُهُ: ﴿**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ**﴾ أَيْ: مِنَ النَّاسِ. قَالَ قَتَادَةُ: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَثْنَى اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، كَانُوا سَبْعَةً. وَكَذَا رَوَى ابن جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَنَا مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ، وَيَقُولُ: عَدَّتُهُمْ سَبْعَةٌ.....وَقَدْ **قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾** أَيْ: سَهْلًا هَيِّنًا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ﴿**وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ أَيْ: فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، أَيْ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامٍ

مَعْصُومٍ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، فَهُوَ الْمُقَدِّمُ الْحَاكِمُ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمُهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ."

وقال ابن جرير الطبري في **قوله تعالى : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾**

"يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تمار يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحُذِفت العِدّة اكتفاء بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد.....عن قتادة **﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ﴾** قال: حَسْبُك ما قصصنا عليك من شأنهم.

* حُدثت عن الحسين بن الفرج، قال: سمعت أبا معاذ يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: **﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾** يقول: حَسْبُك ما قصصنا عليك.

وقال آخرون: المِراء الظاهر هو أن يقول ليس كما تقولون، ونحو هذا من القول."

"وقالَ ابن الأنْبارِيِّ: إلّا جِدالَ مُتَيَقِّنٍ عالِمٍ بِحَقِيقَةِ الخَبَرِ، واللَّهُ تَعالى أُلْقِي إلَيْكَ ما لا يَشُوبُهُ باطِلٌ."

وجاء في تفسير القرطبي في **قوله تعالى : ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾**" رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ نَصَارَى نَجْرَانَ عَنْهُمْ فَنُهِيَ عن السؤال. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مراجعة أهل الكتاب في شي من العلم ."

يستفاد من هذا كله أن العلم لا يقصد إلا من مظانه الحقة ، من الكتاب والسنة ، ومن الخلل الرجوع إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للاستزادة منهم ، والإنتهاء إلى قولهم لإن ما نزل من القرآن والسنة فيه الكفاية والهداية ، ثم إن ما عند اليهود والنصارى ما هي إلا ظنون وأوهام ، ولا يمكن الجزم بصحة أقوالهم ، مع ما عُلم عنهم من التحريف والتزوير .

ويعلمنا الله الاهتمام بالعلوم المفيدة ، فليس الجدال فيما ليس بعلمه فائدة بمجدٍ حتى تُصرف فيه الأوقات ، ويفنى فيه العمر ، وقد وجدنا في زماننا من يهتم بعلوم مستحدثة لا تحصل بها أدنى فأئدة ، فضلاً عن أنها تصرفه عن العلوم النافعة ، وتفني عمره في سراب يحسبه الظمآن ماءً ، اللهم إنا نسألك علما نافعا، ونعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله تعالى :﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ [الكهف ٢٣-٢٤]

قال ابن كثير في تفسير الآية :

"هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ الله لرسوله الله صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَى الْأَدَبِ فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَّامِ الْغُيُوبِ، الَّذِي يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه [قَالَ] قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لأطوفن الليلة على سَبْعِينَ امْرَأَةً -وَفِي رِوَايَةِ تِسْعِينَ امْرَأَةً. وَفِي رِوَايَةٍ: مِائَةِ امْرَأَةٍ-تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقِيلَ لَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ-قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرْكًا لِحَاجَتِهِ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ)."**

وروي عن ابن عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ مُشْرِكِي قريشٍ بعثوا النَّضْرَ بنَ الحارثِ ، وعقْبَةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبَارِ اليهودِ بالمدينةِ فقالوا لهُمْ : سَلُوهُمْ عن أَمْرِهِ وأَخْبِروهم خَبَرَهُ وصِفُوا لهم مَقَالَتَه ، فإنهم أهلُ الكتابِ الأولِ ، وعندَهُمْ علْمٌ ما

ليسَ عندنَا من علمِ الأنبياءِ ، فقَدِمَا المدينةَ فسألا أحبارَ اليهودِ عنهُ ، وأخبرُوهم بمَا يقولُ ، فقالوا لهُم : سَلُوهُ عن ثلاثٍ فإنْ أخْبَرَكُم بهنَّ فهوَ نبيٌّ مرسَلٌ ، وإلا فهوَ رجلٌ مُتَقَوّلٌ ، سلُوهُ عن فِتْيَةٍ ذهبوا في الدهْرِ الأوَّلِ ما كانَ من أمرِهِم ؟ فإنَّهُم كانَ لهمْ حديثٌ عجِيبٌ ، وسلُوهُ عن رجلٍ طوَّافٍ طافَ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها ما كان نَبَؤُهُ ؟ وسلُوهُ عن الرُّوحِ ما هو ؟ فانْطَلَقَا فقَدِمَا مكةَ فقالا : يا معشَرَ قريشٍ قدْ جئْنَاكُم بفَصْلِ ما بينكم وبينَ محمدٍ ، أمَرَنَا أحبارُ اليهودِ أنْ نسْأَلَهُ عن ثلاثٍ ، فذكَرَ القصَّةَ ، فجاءوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسأَلُوهُ عن ذلكَ فقالَ : غدًا أجِيبُكُم ولم يَسْتَثْنِ ، فمَكَثَ خمسَ عشرَةَ ليلةً لا يُحْدِثُ اللهُ إليهِ في ذلكَ وحيًا ، ولا يأتِيهِ جبريلُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّى أحْزَنَ ذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأَرْجَفَ بهِ أهلُ مكةَ ، فقالُوا : وعَدَنَا أنْ يجيبَنَا غدًا وقدْ مَضَتْ خمسِ عشرةَ ليلةً ، أصبحْنَا منْها اليومَ لا يخبِرُنَا عمَّا سألْنَاهُ عنهُ ، فنزلَ عليهِ جبريلُ بسورةِ الكهفِ ، فعَاتَبَهُ في أوَّلِهَا على حزْنِهِ عليهمْ ثمَّ أخبَرَهُ بخبَرِ أهلِ الكهفِ ، وأخبَرَهُ عن الرجلِ الطوَّافِ ، ونزلَ قولُهُ تعالى : **{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ }** الآيةَ الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : ابن حجر العسقلاني | المصدر : موافقة الخبر الخبر

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ [الكهف ٢٣-٢٤]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

"وَقَدْ عَتَبَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ ﷺ حَيْثُ قالَ لِمَن سَألَهُ مِن أهْلِ الكِتابِ عَنْ أشْياءَ " غَدًا أُخْبِرُكم "، ولَمْ يَقُلْ إنْ شاءَ اللَّهُ، فاحْتَبَسَ الوَحْيُ عَنْهُ شَهْرًا، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ: **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا - إلا أنْ يَشاءَ اللَّهُ واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ﴾**

أيْ: إذا نَسِيتَ ذَلِكَ الِاسْتِثْناءَ عَقِيبَ كَلامِك فاذْكُرْهُ بِهِ إذا ذَكَرْت، هَذا مَعْنى الآيَةِ، وهو الَّذِي أرادَهُ ابن عَبّاسٍ بِصِحَّةِ الِاسْتِثْناءِ المُتَراخِي، ولَمْ يَقُلْ ابن عَبّاسٍ قَطُّ، ولا

مَن هو دُونَهُ: إنّ الرَّجُلَ إذا قالَ لِامْرَأتِهِ: " أنْتِ طالِقٌ " أوْ لِعَبْدِهِ: " أنْتَ حُرٌّ " ثُمَّ قالَ بَعْدَ سَنَةٍ " إنْ شاءَ اللَّهُ "

إنّها لا تَطْلُقُ، ولا يُعْتَقُ العَبْدُ، وأخْطَأ مَن نَقَلَ ذَلِكَ عَنْ ابن عَبّاسٍ، أوْ عَنْ أحَدٍ مِن أهْلِ العِلْمِ أَلْبَتَّةَ، ولَمْ يَفْهَمُوا مُرادَ ابن عَبّاسٍ، والمَقْصُودُ أنَّ الِاسْتِثْناءَ لا يَخْتَصُّ بِاليَمِينِ لا شَرْعًا، ولا عُرْفًا، ولا لُغَةً.

وَتَفْسِيرُ الآيَةِ عِنْدَ جَماعَةِ المُفَسِّرِينَ: أنَّكَ لا تَقُلْ لِشَيْءٍ: أفْعَلُ كَذا وكَذا، حَتّى تَقُولَ: إنْ شاءَ اللَّهُ. فَإذا نَسِيتَ أنْ تَقُولَها فَقُلْها مَتى ذَكَرْتَها. وهَذا هو الِاسْتِثْناءُ المُتَراخِي الَّذِي جَوَّزَهُ ابن عَبّاسٍ وتَأوَّلَ عَلَيْهِ الآيَةَ. وهو الصَّوابُ.

فَغَلِطَ عَلَيْهِ مَن لَمْ يَفْهَمْ كَلامَهُ ونُقِلَ عَنْهُ أنَّ الرَّجُلَ إذا قالَ لِامْرَأتِهِ: أنْتِ طالِقٌ ثَلاثًا، أوْ قالَ: نِسائِيَ الأرْبَعُ طَوالِقُ. ثُمَّ بَعْدَ سَنَةٍ يَقُولُ: إلّا واحِدَةً، أوْ: إلّا زَيْنَبَ - إنَّ هَذا الِاسْتِثْناءَ يَنْفَعُهُ.

وَقَدْ صانَ اللَّهُ عَنْ هَذا مَن هو دُونَ غِلْمانِ ابن عَبّاسٍ بِكَثِيرٍ، فَضْلًا عَنِ البَحْرِ حَبْرِ الأُمَّةِ وعالِمِها الَّذِي فَقَّهَهُ اللَّهُ في الدِّينِ وعَلَّمَهُ التَّأْوِيلَ. وما أكْثَرَ ما يَنْقُلُ النّاسُ المَذاهِبَ الباطِلَةَ عَنِ العُلَماءِ بِالأفْهامِ القاصِرَةِ.

وَلَوْ ذَهَبْنا نَذْكُرُ ذَلِكَ لَطالَ جِدًّا وإنْ ساعَدَ اللَّهُ أفْرَدْنا لَهُ كِتابًا.

والَّذِي أجْمَعَ عَلَيْهِ المُفَسِّرُونَ: أنَّ أهْلَ مَكَّةَ سَألُوا النَّبِيَّ عَنِ الرُّوحِ وعَنْ أصْحابِ الكَهْفِ وعَنْ ذِي القَرْنَيْنِ، فَقالَ: أُخْبِرُكم غَدًا. ولَمْ يَقُلْ: إنْ شاءَ اللَّهُ. فَتَلَبَّثَ الوَحْيُ أيّامًا ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ.

قالَ ابن عَبّاسٍ ومُجاهِدٌ والحَسَنُ وغَيْرُهُمْ: مَعْناهُ: إذا نَسِيتَ الِاسْتِثْناءَ ثُمَّ ذَكَرْتَ فاسْتَثْنِ.

قالَ ابن عَبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: ويَجُوزُ الِاسْتِثْناءُ إلى سَنَةٍ.

وَقالَ عِكْرِمَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: واذْكُرْ رَبَّكَ إذا غَضِبْتَ وقالَ الضَّحّاكُ والسُّدِّيُّ: هَذا في الصَّلاةِ؛ أيْ إذا نَسِيتَ الصَّلاةَ فَصَلِّها مَتى ذَكَرْتَها."

وقال الإمام الرازي :

"واعْلَمْ أنَّ اسْتِدْلالَ ابن عَبّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما- ظاهِرٌ في أنَّ الِاسْتِثْناءَ لا يَجِبُ أنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، أمّا الفُقَهاءُ فَقالُوا: إنّا لَوْ جَوَّزْنا ذَلِكَ لَزِمَ أنْ لا يَسْتَقِرَّ شَيْءٌ مِنَ العُقُودِ والايمان، يُحْكى أنَّهُ بَلَغَ المَنصُورَ أنَّ أبا حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- خالَفَ ابن عَبّاسٍ في الِاسْتِثْناءِ المُنْفَصِلِ فاسْتَحْضَرَهُ لِيُنْكِرَ عَلَيْهِ، فَقالَ أبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذا يَرْجِعُ عَلَيْكَ، فَإنَّكَ تَأْخُذُ البَيْعَةَ بِالايمان، أتَفْرِضُ أنْ يَخْرُجُوا مِن عِنْدِكَ فَيَسْتَثْنُوا فَيَخْرُجُوا عَلَيْكَ ؟ فاسْتَحْسَنَ المَنصُورُ كَلامَهُ ورَضِيَ بِهِ."

جاء في الدر المنثور للسيوطي :

(وأخْرَجَ ابن المُنْذِرِ، وابن أبِي حاتِمٍ، والطَّبَرانِيُّ، عَنِ ابن عَبّاسٍ في هَذِهِ الآيَةِ قالَ: إذا نَسِيتَ أنْ تَقُولَ لِشَيْءٍ: إنِّي أفْعَلُهُ. فَنَسِيتَ أنْ تَقُولَ: إنْ شاءَ اللَّهُ. فَقُلْ إذا ذَكَرْتَ: إنْ شاءَ اللَّهُ.....وأخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنصُورٍ عَنِ ابن عُمَرَ قالَ: كُلُّ اِسْتِثْناءٍ مَوْصُولٌ فَلا حِنْثَ عَلى صاحِبِهِ، وإذا كانَ غَيْرَ مَوْصُولٍ فَهو حانِثٌ.)

وفي هذا أقول : الموضوع إنما هو في تدارك تعليق ما يعد الإنسان به ، ويعزم عليه بمشيئة الله تعالى ، لا ما توسع القوم به في موضوع الاستثناء المتراخي أو الموصول في الايمان والعقود ، والله أعلم .

وفي تفسير **قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسى أنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾** يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله :

"وَفِي مَعْنى الكَلامِ قَوْلانِ:

أحَدُهُما: عَسى أنْ يُعْطِيَنِي رَبِّي مِنَ الأياتِ والدَّلالاتِ عَلى النُّبُوَّةِ ما يَكُونُ أقْرَبُ في الرُّشْدِ، وأدَلَّ مِن قِصَّةِ أصْحابِ الكَهْفِ، فَفَعَلَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وآتاهُ مِن عِلْمِ غُيُوبِ

المُرْسَلِينَ ما هو أوْضَحُ في الحُجَّةِ وأقْرَبُ إلى الرُّشْدِ مِن خَبَرِ أصْحابِ الكَهْفِ، هَذا قَوْلُ الزَّجّاجِ.

والثّانِي: أنَّ قُرَيْشًا لَمّا سَألَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يُخْبِرَهم خَبَرَ أصْحابِ الكَهْفِ، قالَ: " غَدًا أُخْبِرَكم "، كَما شَرَحْنا في سَبَبِ نُزُولِ الأيَةِ، فَقالَ اللَّهُ تَعالى لَهُ: ﴿**وَقُلْ عَسى أنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي**﴾؛ أيْ: عَسى أنْ يَعْرِفَنِي جَوابَ مَسائِلِكم قَبْلَ الوَقْتِ الَّذِي حَدَّدْتُهُ لَكُمْ، ويُعَجِّلَ لِي مِن جِهَتِهِ الرَّشادَ، هَذا قَوْلُ ابن الأنْباريِّ."

قوله تعالى : {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)}

قال مكي بن أبي طالب صاحب الهداية إلى بلوغ النهاية : " قوله: ﴿**وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**فِي حُكْمِهِ أَحَداً**﴾.

معناه: ويقولون لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين. هذا حكاية عن قول أهل الكتاب، فرد الله [عز وجل] ذلك عليهم. وقال: [الله] لنبيّه [ﷺ]

﴿قُلِ [ٱللَّهُ] أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ الآية.

قال: قتادة: وفي حرف ابن مسعود "[و] قالوا: ﴿**وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ**﴾. وقال مجاهد والضحاك: هو خبر من الله [عز وجل] عن مبلغ لبثهم في الكهف ولما قال: ﴿**وَٱزْدَادُواْ تِسْعاً**﴾ قالوا سنين أو ليال أو غيرها فأنزل الله: ﴿**قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ**﴾ الآية.

وقيل: إن أهل الكتاب قالوا [على] عهد النبي [ﷺ]: إن للفتية من لدن دخلوا الكهف إلى عصرنا هذا ثلاث مائة سنة وتسع سنين، فرد الله [عز وجل] عليهم وأعلم نبيّه أن قدر لبثهم في الكهف إلى أن بعثوا ثلاث مائة سنة وتسع.

ثم قال: تعالى لنبيّه [عليه السلام]. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾.

[أي] بعد أن بعثهم وقبض أرواحهم إلى يومهم هذا لا يعلم مقدار ذلك إلا الله."

وقال ابن الجوزي :" **قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وازْدادُوا تِسْعًا﴾** يَعْنِي: تِسْعَ سِنِينَ، فاسْتَغْنى عَنْ ذِكْرِ السِّنِينَ بِما تَقَدَّمَ مِن ذِكْرِها، ثُمَّ أعْلَمَ أنَّهُ أعْلَمُ بِقَدْرِ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ مِن أهْلِ الكِتابِ المُخْتَلِفِينَ فِيها، فَقالَ: **﴿قُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِما لَبِثُوا﴾** . قالَ ابن السّائِبِ: قالَتْ نَصارى نَجْرانَ: أمّا الثَّلاثَمِائَةِ فَقَدْ عَرَفْناها، وأمّا التِّسْعُ فَلا عِلْمَ لَنا بِها، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعالى: " **﴿قُلِ اللَّهُ أعْلَمُ بِما لَبِثُوا ﴾**

قلت وفي هذا إشارة إلى ما سبق من آيات تنهى عن الرجوع إلى علوم أهل الكتاب لأنها محض ظنون وأوهام ، فلا عرفوا عدد أصحاب الكهف ، ولا مدة لبثهم ، وما كان لديهم في نبأ أهل الكهف إلا طرفاً من العلم ،وعجباً لهم كيف يمتحنون غيرهم فيما ليس لهم به علم أكيد ، أو ليس لهم به علم ألبته ! والله وحده أعلم بما لبثوا له علم الغيب وحده ، **قال تعالى : {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا (٢٨)﴾ [الجن٢٦-٢٨]** قال الإمام ابن جرير الطبري في هذه الآية : " يعني بعالم الغيب: عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلم يروه فلا يظهر على غيبه أحدا، فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول، فإنه يظهره على ما شاء من ذلك." فسبحان من جلَّى لنا نبأ أهل الكهف في كتابه كأنه رأي العين ، وكشف لنا اختلاف أهل الكتاب ، وما وَهَى من علومهم ، وما أعظم قول الله فيهم **{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)} [النمل ٧٣-٧٦]** ،

أما وسعهم بعد هذا أن يؤمنوا لله ويذعنوا بدلاً من تأليب مشركي قريش على النبي ، واختباره فيما يعلمون من نبوته ، ولكنه الكفر والكبر والأنفة عن قبول الحق ، والله المستعان في دفع كيدهم ومكرهم ، **قال تعالى : {وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ} [إبراهيم ٤٦]** .

أما أهل الايمان فإن لهم شأن آخر فيما قص الله عليهم من قصص الأمم السالفة من الزيادة في الايمان ، والهداية ، والتثبيت ، **قال تعالى {لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ} [يوسف ١١١]**

قوله تعالى : **{أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)}** جاء في زاد المسير لابن الجوزي رحمه الله :" **قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أبْصِرْ بِهِ وأسْمِعْ﴾** فِيهِ قَوْلانِ:

أحَدُهُما: أنَّهُ عَلى مَذْهَبِ التَّعَجُّبِ، فالمَعْنى: ما أسْمَعَ اللَّهُ بِهِ وأبْصَرَ؛ أيْ: هو عالِمٌ بِقِصَّةِ أصْحابِ الكَهْفِ وغَيْرِهِمْ، هَذا قَوْلُ الزَّجّاجِ، وذَكَرَ أنَّهُ إجْماعُ العُلَماءِ.

والثّانِي: أنَّهُ في مَعْنى الأمْرِ، فالمَعْنى: أبْصِرْ بِدِينِ اللَّهِ وأسْمِعْ؛ أيْ: أبْصِرْ بِهُدى اللَّهِ وأسْمِعْ، فَتَرْجِعُ الهاءُ إمّا عَلى الهُدى، وإمّا عَلى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، ذَكَرَهُ ابن الأنْبارِيِّ.

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ما لَهم مِن دُونِهِ﴾؛ أيْ: لَيْسَ لِأهْلِ السَّماواتِ والأرْضِ مِن دُونِ اللَّهِ مِن ناصِرٍ، **﴿وَلا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أحَدًا﴾** ولا يَجُوزُ أنْ يَحْكُمَ حاكِمٌ بِغَيْرِ ما حَكَمَ بِهِ، ولَيْسَ لِأحَدٍ أنْ يَحْكُمَ مِن ذاتِ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ شَرِيكًا لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ في حُكْمِهِ. وقَرَأ ابن عامِرٍ: **(ولا تُشْرِكْ)** جَزْمًا بِالتّاءِ، والمَعْنى: لا تُشْرِكْ أيُّها الإنْسانُ." **(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)) [الكهف])**

جاءت الآية ردا على الكفار المعاندين الذين طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبديل كلام الله وتغييرة لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالوا ائْتِ بِقُرْآنٍ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها ، **قال تعالى :(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [يونس: ١٥]**

يقول الزمخشري رحمه الله :" غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح؟ قلت: الكيد والمكر. أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير، فللطمع ولاختبار الحال . وأنه إن وجد منه تبديل ، فإمّا أن يهلكه الله فينجو منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لافترائه على الله."

قلت : نسبة القرآن من قبل الكفار إلى رسول الله إنما هي طريق إلى إنكار بعثه ورسالته ، وكان صلى الله عليه وسلم دائما يذكرهم أنه بشير ونذير بالوحي ، يكل الأمر في بعثه بالكتاب إلى الله الذي أرسله **قال تعالى :(قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [يونس: ١٦]**

وقال سبحانه :(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ ابناءَهُمُ ۘ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)) [الأنعام: ١٧-٢١]

ولنعد للآية من سورة الكهف :**((وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧))**

تظهر في هذه الآية قوة تعبير مذهلة في تأكيد الكتاب من الله فقوله :**(وَاتْلُ)** غلب كثير من المفسرين أنها بمعنى اتبع ثم قال **(ما أوحي إليك)** ثم **(من كتاب ربك)** ثم **(لا مبدل لكلماته)** قال ابن كثير : " أَيْ: لَا مُغَيِّرَ لَهَا وَلَا مُحَرِّفَ وَلَا مُؤَوِّلَ."

فلا يستطيع أحد من الخلق الإتيان بمثله ، أو إبداله لأنه كلام الله تعالى الذي أعجزت البلغاء فصاحته ، وأدهشت العقول جزالته ، ولو تبدل كلام الله نزولا عند رغبة الكفار ، لتلاعبت بكتاب الله الأهواء ، وتبدل الإتباع بالمخالفة والابتداع ، وبدل أن يطلب الخلق رضى الحق ، أصبح يطلب رضاهم على رضاه تعالى الله عن ذلك علو كبيرا ، وقوله سبحانه وتعالى : **(وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا)** ملجأ أو مكانا تميل إليه منه إن لم تفعل ما أمرت به يا محمد ، وحاشاه صلوات ربي عليه مخالفة أمر ربه وإنما في هذا إنذار لكل مخالف هو في ملكه عز وجل ، فلا يعني الإمهال أنه إهمال ، بل هو تأخير إلى أجل مسمى ، أعاذنا الله من غضبه ، ووقانا عذابه بواسع حلمه وكرمه .

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف ٢٨]

الصبر فيه مجاهدة للنفس ، وحبس لها عن محبوباتها لمحبوبات ربها ، وما أجل وأجمل التعبير القرآني بقوله : **(وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ)** إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أن

في الصبر مدافعة للنفس ، وحمل لها على الخير ، ولم يكتف سبحانه بالقول واصبر كما في العديد من الآيات كقوله تعالى : **﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٥) [سورة هود]** - حتى ذكر النفس للانتباه إلى وجوب اقتيادها ، وحبسها وحملها وتثبيتها على أمر الله ، لئلا ترى لها شرفاً عن مجالسة أهل الضعة من فقراء المؤمنين ، الذين تعلقت قلبهم بذكر الله وطاعته ، **قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾** قال ابن كثير في تفسيره :"أَيْ: خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَافَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، ورَدها إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا **﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾** أَيْ: مُنْقَلَبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ." ويكون الدافع للإنسان لإيثار هوى النفس إنما هو تصور تحصيل اللذة العاجلة له بعد ذلك ، والتعلق بخيوط زينة الحياة الدنيا المنقطعة ، ولكن المؤمن ذا البصيرة النافذة يدرك أن لذاتِ الدنيا آنية ومنقطعة ، فلا تغريه بهرجتها ، ولا تستولي على قلبه زينتها ، ومع هذا فعلى المؤمن تذكر هذه الحقيقة دائماً لئلا تلتقم الغفلة قلبه .

في الآية أمر الله رسوله بحبس نفسه وتثبيتها مع أصحابه " **﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾** بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها **﴿يُرِيدُونَ﴾** بفعلهم ذلك **﴿وَجْهَهُ﴾** لا يريدون عرضا من عرض الدنيا."

وجاء في المحرر الوجيز لابن عطية قوله :" سَبَبُ هَذِهِ الآيَةِ أنَّ عُظَماءَ الكُفّارِ قِيلَ: مِن أهْلِ مَكَّةَ، وقِيلَ عَيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وأصْحابُهُ، والأوَّلُ أصْوَبُ لِأنَّ السُورَةَ مَكِّيَّةٌ، قالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: لَوْ أبْعَدْتَ هَؤُلاءِ عن نَفْسِكَ لَجالَسْناكَ وصَحِبْناكَ، يُرِيدُونَ: عَمّارَ بْنَ ياسِرٍ، وصُهَيْبَ بْنَ سِنانٍ، وسَلْمانَ الفارِسِيَّ، وعَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وغَيْرَهم مِنَ الفُقَراءِ كَبِلالٍ ونَحْوِهِ، وقالُوا: إنَّ رِيحَ جِبابِهِمْ تُؤْذِينا، فَنَزَلَتِ الآيَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، ورُوِيَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إلَيْهِمْ، وجَلَسَ بَيْنَهم وقالَ: « "الحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي جَعَلَ مِن أُمَّتِي مَن أُمِرْتُ أنْ أصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُ"،» وَرُوِيَ أنَّهُ قالَ لَهُمْ: « "مَرْحَبًا بِالَّذِينِ عاتَبَنِي فِيهِمْ رَبِّي"،» ورَوى سَلْمانُ أنَّ المُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ، عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ، والأقْرَعَ، وذَوِيهِمْ قالُوا ما ذُكِرَ فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

وقوله: ﴿**وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾ يقول الطبري:

"يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ: ولا تصرف عيناك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تجاوزهم إليه، وأصله من قولهم: عدوت ذلك، فأنا أعدوه: إذا جاوزته."

وقال ابن الجوزي في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿**وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ**﴾؛ أيْ: لا تَصْرِفْ بَصَرَكَ إلى غَيْرِهِمْ مِن ذَوِي الغِنى والشَّرَفِ، وكانَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَرِيصًا عَلى إيمانِ الرُّؤَساءِ لِيُؤْمِنَ أتْباعُهُمْ، ولَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لِزِينَةِ الدُّنْيا قَطُّ، فَأمَرَ أنْ يَجْعَلَ إقْبالَهُ عَلى فُقَراءِ المُؤْمِنِينَ.

قوله سبحانه : **{وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا}** تذكرنا هذه الآية بالعديد من الآيات التي تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم طاعة الكفار في عبادة آلهتهم أو الركون إليهم ومداهنتهم ، **كقوله سبحانه :{ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا (٥٢)} [الفرقان] وقوله تعالى:{ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (٤٨)﴾ [الأحزاب ٤٥-٤٨]** ، وقوله عز وجل:**{ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا (٢٣) فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا (٢٤)﴾ [الإنسان]** ، وإن كان الخطاب متوجها لرسولنا الكريم فهو خطاب للمسلمين أيضاً ، ويُضربُ لهذا مثلا : بقوم سفهاء في سفر وُضعَ عليهم هادياً عاقلاً ، فإن هم أطاعوه اهتدوا ووصلوا لمأمنهم ، وإن هو

أطاعهم في سفاهتهم ضلوا وهلكوا وهلك معهم ، فطاعة أهل الجهل والضلال مؤذنة بالخسران في الدنيا والآخر ، ولا أدل على ذلك من زماننا الذي نعيش فيه ، فقد ظن من أغفل الله قلبه أن في الأخذ بمبادئ الأمم الكافرة الداعية إلى الكفر تكون النهضة والقوة ، فإذا بهذه الدول تسير من سيء إلى أسوأ بطاعة الكفار والمنافقين فيها ، فنالت بذلك الخزي في الدنيا ، وخسران الصفقة في الآخرة ، اللهم سلمنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة .

وفي **قوله تعالى :{مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا}** يقول ابن عطية : "قِيلَ: إنَّهُ أرادَ بِذَلِكَ مُعَيَّنًا وهو عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، والأقْرَعُ، قالَهُ خِبابٌ، وقِيلَ: إنَّما أرادَ مِن هَذِهِ صَفَّتُهُ، وإنَّما المُرادُ أوَّلًا كُفّارُ قُرَيْشٍ لِأنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ. وقَرَأ الجُمْهُورُ: "أغْفَلْنا قَلْبَهُ" بِنَصْبَ الباءِ، عَلى مَعْنى: جَعَلْناهُ غافِلًا، وقَرَأ عَمْرُو بْنُ فائِدٍ، ومُوسى الأسْوارِيُّ: "أغْفَلَنا قَلْبُهُ"، عَلى مَعْنى: أهْمَلَ ذِكْرَنا وتَرَكَهُ، قالَ ابن جِنِّيٍّ المَعْنى: مَن ظَنَّنا غافِلِينَ عنهُ، وذَكَرَ أبُو عَمْرٍو الدانِي: إنَّها قِراءَةُ عَمْرِو بْنِ عَبِيدٍ.

و"الفَرْطُ" يُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ بِمَعْنى التَفْرِيطِ والتَضْيِيعِ، أيْ أمْرُهُ الَّذِي يَجِبُ أنْ يَلْتَزِمَ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ بِمَعْنى الإفْراطِ والإسْرافِ، أيْ أمْرُهُ وهَواهُ الَّذِي هو بِسَبِيلِهِ، وقَدْ فَسَّرَ المُتَأوِّلُونَ بِالعِبارَتَيْنِ، أعْنِي التَضْيِيعَ والإسْرافَ، وعَبَّرَ عنهُ خِبابٌ بِالهَلاكِ، وداوُدُ بِالنَدامَةِ، وابن زَيْدٍ بِالخِلافِ لِلْحَقِّ، وهَذا كُلُّهُ تَفْسِيرٌ بِالمَعْنى."

ولابن القيم كلام رائع في هذا يقول رحمه الله : " ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ.....

وصدأ القلب بأمرين:

بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبًا على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه.

فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًا ولا ينكر باطلًا.

وهذا أعظم عقوبات القلب".

{وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً }[٢٩ -الكهف]

مر معنا سابقا أن الكفار اشترطوا على الرسول صلى الله عليه وسلم للجلوس معه إقصاء بعض الصحابة من الفقراء والضعفاء ، لأنهم يعتبرون أنفسهم كما أورثتهم أعراف الجاهلية أنهم في مقام رفيع ، ومنزل شريف ، لا يجدر معه إلا صيانة أنفسهم من مجالسة البسطاء والضعفاء والفقراء ، وهنا في هذه الآية الكريمة يغلق القرآن عليهم دعواهم ، ويحط من شأن تبريراتهم مهما كانت فلم تأت عليها الآية بأي ذكر ، بل جعلت كل الذكر والاهتمام منصبا على الايمان ، وأعلت مناره بالذكر ، ورفعت أهله على أشراف القوم وإن كانوا من أهل الضعف والفقر ، فأتى الذكر بالإيمان والحق ، ويأتي التذكير بعدها بلفظ وجيز يبطل دعوى الكفار بإن امتناعهم عن مجالسة الرسول والاستماع لدعوته لجلوس فقراء المؤمنين والضعفاء إليه ، بقوله تعالى **(وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُم)** فدقق معي هداك الله في قوله من ربكم ، اعلاماً وتقريرًا للجميع وبالأخص الكفار من أشراف القوم ، أن الله ربكم وربهم ، خالقكم وخالقهم ، رازقكم ورازقهم ، فلا تفاضل للخلق فيما اختار لهم ربهم الذي

تفضل على هذا بالثراء والشرف ، وهذا بإقتار الرزق والضعة ، لإن ما بهذا من الثراء إنما هو من الله ، وما بهذا من الإقتار إنما هو من الله ، فعلام يجد الثري نفسه فاضلا ويرى غيره مفضولا ؟ بشيء ليس له فيه اختيار ، ولا يد ولا احتيال ، وإنما يتفاضل الخلق بما لهم فيه اختيار ، وسبق إلى الايمان ، فعجبا للكافر عندما اختار الله له الثراء والشرف رضي ، وعندما اختار له الايمان كيف يأبى ويكفر ، أعاذنا الله من حالهم ، وشر مقيلهم لمقالهم .

نعود : (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُم) تأمل أخي بقوله : وقل بصيغة الأمر ، إعلاما للجميع أن رسوله مأمور ، وإذا كان أشرف خلقه مأمورا فإن ما بعده من الخلق مأمورون ، ومع أن الأمر بإقصاء الضعفاء عرض على الرسول إلا أن ملك الأمر في الرد ومنتهاه إلى الله عز وجل ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، فتأمل هذا مع ما سبق كيف تم بأخصر لفظ ، وأتم معنى .

وقال القرطبي في الجامع :" **قوله تعالى: {وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ} «الحقّ»** رفع على خبر الابتداء المضمر؛ أي قل هو الحق. وقيل: هو رفع على الابتداء، وخبره في قوله «من ربكم» "

وحق الحق إخواني أن يتبع ، لا أن يكون رهنا لإهواء الخلق ، فإن في إتباعه الخير لهم ، وفي تركه كل الضرر ، فالناكب عن الحق لن يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئا ، تعالى الله وتقدست أسماؤه .

ومثل الكفار في شرطهم اقصاء الضعفاء، مثلُ رجل في سفر هلاكه متحقق إن سافر وحيدا ، لما في سفره من الأخطار ، وجد قوما يصحبهم ويأمن معهم على نفسه وماله ، لكنه أبى حتى يخرجوا من بينهم بعضهم ممن يرى أن له شرفا عليهم ، فابوا عليه ذلك وساروا وتركوه ، فما ظنكم بحاله بعدهم ؟

وفي : (**فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً**)

قوله تعالى:(فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُر) ليس للإيجاب إنما هو تهديد من الله لهم إن هم كفروا ، دل عليه الوعيد في قوله : (**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً**) والتهديد بالأمر أشد وقعا وأبلغ معنى في الخطاب ، وفيه إشارة إلى أن الله لا ينتفع بإيمان المؤمن ، ولا يضره كفر من كفر ، وفي الحديث الذي يرويه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ، **عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»** قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

فتأمل أخي هذا الحديث القدسي وعظم معناه تصب خيرا كثيرا .

وردت عدة آيات تصف الكفر بالظلم وتصف الكافرين بالظالمين ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وخروج عن الحق يكون من أعظمه -الكفر بالله تعالى ، ففي سورة لقمان قول لقمان لابنه وهو يعظه **(يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (13)**

والكافر ظالم لنفسه لا لربه ، وقد ذكر بعض المتحذلقين أن أعلى مراتب الظلم ظلم العبد لربه بالكفر والاشراك ، تعالى الله الموصوف بأعلى درجات الكمال والجلال عما يقولون علو كبيرا ، وذلك لإن المظلوم عادة ما يقع عليه الضرر من ظلم الظالم ، فأين الضرر ممن لا ينفعه إيمان المؤمن ، ولا تضره معصية العاصي وكفره، ولو تأمل القائلون بقوله تعالى من سورة البقرة : **(وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)** لانتهوا عن قولهم .

وفي الآية من الوعيد للكفار ما ترتعد منه الفرائص ، وتقشعر له أبدان أهل الكمال والنقائص ، قال البغوي في تفسير **قوله تعالى : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً)** : عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ قَالَ: "سُرَادِقُ النَّارِ أَرْبَعَةُ جُدُرٍ كَثْفُ كُلِّ جِدَارٍ مِثْلُ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً".

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: هُوَ حَائِطٌ مِنْ نَارٍ.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ عُنُقٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ فَيُحِيطُ بِالْكُفَّارِ كَالْحَظِيرَةِ.

وَقِيلَ: هُوَ دُخَانٌ يُحِيطُ بِالْكُفَّارِ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: **(انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ)**

فتأمل عظم المشهد وهوله وهم بعدها يستغيثون فيغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، والمهل كما أورد البغوي في تفسيره :عنَ " ابن عَبَّاسٍ: هُوَ مَاءٌ غَلِيظٌ مِثْلُ دُرْدِيِّ الزَّيْتِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْقَيْحُ وَالدَّمُ.

وَسُئِلَ ابن مَسْعُودٍ عَنِ: "الْمُهْلِ" فَدَعَا بِذَهَبٍ وَفِضَّةٍ فَأَوْقَدَ عَلَيْهِمَا النَّارَ حَتَّى ذَابَا ثُمَّ قَالَ: هَذَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمُهْلِ .

{يَشْوِي الْوُجُوهَ} يُنْضِجُ الْوُجُوهَ مِنْ حَرِّهِ.

{بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ} النَّارُ **{مُرْتَفَقًا}** قَالَ ابن عَبَّاسٍ: مَنْزِلًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُجْتَمَعًا وَقَالَ عَطَاءٌ: مَقَرًّا. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: مَجْلِسًا. وَأَصْلُ "الْمُرْتَفَقِ": الْمُتَّكَأُ "

أعاذنا الله وإياكم إخواني أهل الايمان من عذاب جهنم وشررها ، وتغيظها وزفيرها ، وغفر لنا الذنوب جلها وحقيرها ، وألزمنا طاعته ما عشنا ، ورضاه ما ابنا .

قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾)

مر معنا فيما سبق الوعيد الشديد لمن يكفر بالله ، بآيات تذهل العقول وتقرع الأسماع ، وقلنا بإن قوله تعالى : **(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)** ليس للإيجاب والتخيير ، وإنما للتهديد بدليل **قوله تعالى : (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ... الآيه)** هذا من يكفر فما شأن من يؤمن ويعمل صالحا ؟ الجواب في **قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾)**

واسمحوا لي إخواني أن أدخلكم في بعض علوم النحو نظرا لأهمية الموضوع في فهم الآية :

تدخل(**إن**) على المبتدأ والخبر، فتنصب الأول ويسمى اسمهما، وترفع الثاني ويسمى خبرها.

نحو: إنَّ عماداً قائم ، وتعرف بالحروف المشبهة بالفعل؛ لأن معنى إنَّ التوكيد .

ولنعد للآية : **(إِنَّ ٱلَّذِين آمنوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾)**

إسم إن واقع في قوله تعالى **:(ٱلَّذِين آمنوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)** والسؤال الذي حير بعض العلماء وعدد أقوالهم في المسألة أين خبر إن أم أنه محذوف ، وإن كان خبر إن محذوفا فلا بد من دليل يدل عليه ليتم المعنى ، وهل النص في **قوله تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا)** خبر لإن ، أم أنه جملة اعتراضية بين اسم إن وخبرها ، دعونا نوضح لكم إخواني المسألة : علمنا أن إن أشبهت الفعل لأنها تفيد التوكيد ، فهي تدخل على الجملة الإسمية إذن ، والجملة الإسمية مبتدأ ينتظر خبرا ، وبدخول إن يتأكد حصول الخبر ، دعونا نسأل :

لو قلت لكم : إن زيدا ولم أكمل فهل يتأكد لكم خبر في زيد ؟ حتما لا ، لإن التأكيد ينتظر مؤكدا ، الآن ارجعوا للآية وتأملوها ، إن ما يتبادر الى الذهن في نص كهذا أن يقال كما في قوله تعالى من آخر سورة الكهف **(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) الآية ، وقوله من سورة البقرة (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ) [البقرة ٢٧٧]**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم ٩٦]

ففي الآيات هنا جاء جواب إن (خبرها) بينا ، لا إضمار فيه ولا خلاف ، أما الآية التي نحن بصددها ففيها بين النحويين والمفسرين خلاف ، وعذرا قد يقول قائل لي : ما شأننا بخلاف النحويين ونحن لسنا من فرسانه ، وأجيب : القرآن الكريم كلام رب العالمين ، لا يمكن أن تجد فيه حشوا ، أو لفظا ليس في مكانه ، وما تنوع التعبير القرآني إلا ويكشف عن معان جليلة ، دق على أولى النهى فهمها ، وهان على أولي الهمة للنفس فيها بذلها ، كيف لا وهي مطلوب الله الأعظم من القرآن الكريم **قال تعالى :(كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ) [ص ٢٩]** ، ولله در أهل النحو في نحوهم هذا المنحى ، والمطلوب الأسمى ، أراحوا من بعدهم باصطياد المعنى ، وأتعبوا عقولهم بهذا المَسمى ، سلكوا الطريق المُعَنَّى ، ليكون لنا سهلا ، رحمهم الله وأجزل لهم أجرا .

ولنعد للآية : يرى الزمخشري في الكشاف أن :

{ أولئك}خبر إن و**{ إِنَّا لاَ نُضِيعُ}** اعتراض ويقول

ولك أن تجعل **{ إِنَّا لاَ نُضِيعُ}** و**{ أولئك}** خبرين معاً.

أو تجعل { أولئك} كلاماً مستأنفاً بياناً للأجر المبهم.

ويجيب رحمه الله المتسائل : فإن قلت: إذا جعلت **{ إِنَّا لاَ نُضِيعُ}** خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: **{ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}** و**{ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات}** ينتظمهما معنى واحد، فقام: **{ مَنْ أَحْسَنَ}** مقام الضمير.

أو أردت: من أحسن عملا منهم "

ففي قول الزمخشري رحمه الله يعتبر **(إنا لا نضيع)** اعتراض وجواب إن واقع في **(أولئك)**

ولا يغلق القول في المسألة بل يقول : ولك أن تجعل **(إنا لا نضيع)** خبرا و(**أولئك**) خبر ثان .

ويجيب على من يسأل إذا اعتبرت **(إنا لا نضيع)** خبرا فأين الضمير الذي يعود على اسم إن ؟ فيجيب بأنه في **(من أحسن عملا)** أو مضمر تقديره **(منهم)**

ولرب سائل يسأل ما فائدة الاعتراض في قوله

: **(إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ؟**

قال ابن عطية بالمحرر الوجيز :

قوله عز وجل: **{ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً}** اعتراض مؤكد للمعنى، مذكر بأفضال الله، منبه على حسن جزائه بين قوله تعالى: **{ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات}** وقوله **{ أولئك}** "

واختلف النحويون في جواب **{إِنَّ}** الأولى، فذكر أبو إسحاق وأبو علي فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن خبره قوله: **{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}** على إضمار منهم، فحذف الراجع من الخبر؛ لأنه معلوم أن الله إنما لا يضيع أجر من أحسن عملاً من المؤمنين، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فإن الله يحبط عمله.

الوجه الثاني: أن المعنى إنا لا نضيع أجرهم، إلا أنه وقع المظهر موقع المضمر؛ لأن من أحسن عملاً في المعنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

الوجه الثالث: أن الخبر قوله: **{أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ}** ويكون قوله: **{إِنَّا لَا نُضِيعُ}** اعتراضًا بين الاسم والخبر، وجاز ذلك؛ لأن من أحسن عملاً بمنزلة الذين آمنوا.

والملاحظ أن جميع الأوجه لا تحتمل ما ذكره بعض المعاصرين من أن الاعتراض إنما هو تنبيه أن الله لا يضيع أجر الكافر إذا أحسن العمل دون الايمان ، ولعل هذا ما حدى بنا الى التطويل في هذا التأمل هنا ، وإن كان الكافر ينال بالحسنات في الدنيا من صدقة وحسن جوار وصلة رحم ، وغير ذلك- طعمة في الدنيا مصداقا للحديث : **" عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنْ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ). رواه مسلم"** فليس بواقع في في قوله تعالى : **(إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)** لإن الكلام في الآية منصب على جزاء من آمن وعمل صالحا وأعقبه بالقول : {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ}

ومن المعلوم أن الكافر الذي وصلته الرسالة يحبط الله عمله ، وليس له في الآخرة إلا النار مصداقا لقوله تعالى من سورة الفرقان : **(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))** وقد أجاد أبو زهرة في تفسيره بالقول : " وقوله تعالى: **(وَقَدِمْنَا)**

، أي عمدنا إلى ما عملوا من عمل يرونه برا يكافئون عليه، فجعلناه كالهباء المفرق في الهواء لَا يرى؛ ذلك لأن البر إنما يكون مع النية المحتسبة عند اللَّه، وهؤلاء ليست لهم نية محتسبة لأنهم لَا يعبدون اللَّه، بل يعبدون الأوثان، ولا يرجون سواها، فهم آثمون بعملهم لفساد نياتهم. هذه حال المشركين فيما يعملون من أعمال يحسبون أن فيها خيرا، وهي ضلال في ضلال لفساد النية، أما الذين لهم البشرَى فهم أصحاب الجنة "

وقال الفضيلُ في **قولهِ تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)**

قال: أخلصُه وأصوبُه.

وقالَ: إنَّ العملَ إذا كانَ خالصًا، ولم يكنْ صوابًا، لم يقبلْ.

وإذا كانَ صوابًا، ولم يكنْ خالصًا، لم يقبلْ حتَّى يكونَ خالصًا

صوابًا، قالَ: والخالصُ إذا كانَ للَّهِ عزَ وجلَّ، والصَّوابُ إذا كانَ على السُّنَّةِ.

وقد دلَّ على هذا الذي قاله الفضيلُ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ:**(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) الكهف**

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾)

بعدما تكلمنا في إيمان هذه الفئة وتقديمها الأعمال الصالحة وأن الله جل ذكره لا يضيع أعمالهم نتكلم هنا عما ينتظرهم من الثواب والجزاء في الآخرة من النعيم الذي خصهم الله به ، أهي جنة أم جنات ؟ ولماذا قال جل ذكره يحلون دون أن يتعاطوا الحلي بأنفسهم ؟ وعندما ذكر اللباس قال **((يلبسون ثيابا))** يعني بأنفسهم دون أن يلبسها لهم أحد ، وجعل لفظ الثياب منكرا واللون منكرا والسندس والإستبرق ، ولماذا خص الاتكاء بالذكر على غيره من الهيئات ؟ ثم يأتي المدح من المكرم لهم بهذا النعيم المقيم بالقول **((نعم الثواب وحسنت مرتفقا))**

أسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون من أهل الجنة نتفيأ ظلالها ، وننال بواسع رحمة ربنا التنعم في جنانها ، وقد أذهب عنا الحزن ، إخوانا على سرر متقابلين ، متحابين فيه آمنين ، إنه أعظم مسؤول ، وأجل مأمول .

إن جزاء أهل الايمان ممن عملوا الصالحات جنات عدن ، إنها إخواني ليس جنة واحدة بل جنان تجري من تحتها الأنهار ، **قال تعالى :**

((تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ)) [الشورى ٢٢]

وقال تعالى: ((جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر ٣٣]))

وهذه الجنان بها قصور ومساكن طيبة تجري الأنهار من تحتها ، قال تعالى : ((يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ [الصف ١٢]))

((وروي أن للمؤمن خيمة من لؤلؤ))

((- ،"حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، قَالَ: نا عَوْنُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ ، يَقُولُ: {جَنَّاتُ عَدْنٍ} ، وَمَا يُدْرِيكَ مَا جَنَّاتُ عَدْنٍ؟ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ أَوْ حَكَمٌ عدل. "سنن سعيد بن منصور))

وفي ذكر الأنهار **قال تعالى : ((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (محمد 15)))**

تصور هذا المشهد وكلي يقين أنك لن تصل أخي بخاطرك وخيالك مهما إجتهدت الى صورة ذهنية لهذا المشهد ، لإنه سيكون حتما أعظم مما تتخيل ، أنهار تجري تحت القصور الموجودة في رياض الجنة ، ومع هذا كما في الصحيح :((وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، ففي **صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي**

- صلى الله عليه وسلم – قال: "من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه "))

الله الله ..

ونعود لذكر حليهم وقوله يحلون على البناء للمفعول ، ولم يقل يتحلون ! فقد أجاب الزمخشري عن هذا بقوله : ((قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وبِناءُ فِعْلِهِ لِلْمَفْعُولِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ إشْعارًا بِأنَّهم يُكْرَمُونَ بِذَلِكَ، ولا يَتَعاطَوْنَ ذَلِكَ بِأنْفُسِهِمْ)) ومعنى كلام الزمخشري رحمه الله أن فعل إلباسهم الحلي يقع عليهم إشعارا بتشريفهم وإكرامهم ، وأما عن سبب تقديم الحلي على اللباس فيجيب : ((لِأنَّ الحُلِيَّ في النَّفْسِ أعْظَمُ وإلى القَلْبِ أحَبُّ، وفي القِيمَةِ أغْلى، وفي العَيْنِ أحْلى))

وأما عن إسناد اللباس اليهم فيجيب أيضا بالقول :((وأسْنَدَ اللِّباسَ إلَيْهِمْ؛ لِأنَّ الإنْسانَ يَتَعاطى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ خُصُوصًا لَوْ كانَ بادِيَ العَوْرَةِ، ووَصَفَ الثِّيابَ بِالخُضْرَةِ؛ لِأنَّها أحْسَنُ الألْوانِ، والنَّفْسُ تَنْبَسِطُ لَها أكْثَرَ مِن غَيْرِها، وقَدْ رُوِيَ في ذَلِكَ أثَرٌ إنَّها تَزِيدُ في ضَوْءِ البَصَرِ، وقالَ بَعْضُ الأُدَباءِ:

أرْبَعَةٌ مُذْهِبَةٌ لِكُلِّ هَمٍّ وحُزْنٍ *** الماءُ والخُضْرَةُ والبُسْتانُ والوَجْهُ الحَسَنُ))

وخَصَّ بالِاتِّكاءَ على غيره لِأنَّها هَيْئَةُ المُنَعَّمِينَ والمُلُوكِ عَلى أسِرَّتِهِمْ .

أما اللباس فهو من حرير بنوعيه الرقيق والغليظ ، **قال تعالى : ((إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ. [الحج ٢٣]))**

قال ابن كثير ((فالسندس: لباس رقاع رقاق كَالْقُمْصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ فَغَلِيظُ الدِّيبَاجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ))

أما عن حُللهم هذه من اللباس فلا تسل عن عددها وجمالها وتنوعها لإن الله قال ((**ثيابا من سندس واستبرق**)) على سبيل التنكير مما يفيد التكثير والتعدد ، وَعَدنا الله وإياكم هذه الحلل ، وألبسكم من البهاء والجمال ما يبدد عنكم الوصب والحَزن ، والنصب وما اعتراكم بدار الفناء من العلل ، وتختم الآية بالقول ((**نعم الثواب وحسنت مرتفقا**)) قال ابن كثير رحمه الله : ((أَيْ: حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمَقَامًا، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الْكَهْفِ:29] ، وَهَكَذَا قَابَلَ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فِي قَوْلِهِ: **{إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}[الْفُرْقَانِ:66]** ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: **{أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الْفُرْقَانِ:76، 75]**))

قوله تعالى :(وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾))

إخواني الكرام لطالما فتن المال أصحاب النفوس المريضة حتى حلقت بهم الآمال في الظن بمالهم أنه يغنيهم عن مآلهم ، واستحوذ عليهم الشيطان ، وأنساهم ذكر المتفضل المنان ، وظنوا بأنفسهم عندما وسع الله عليهم في الرزق أنهم أصحاب حظوة في الدنيا والآخرة ، وأنهم أهل النباهة والذكاء وإلا لما سيقت لهم الدنيا وضحكت ، لهذا تراهم يحتقرون من ليس على شاكلتهم ، ويظنون به ضعف العقل والحيلة ، ورأيت من أهل الجهل من إذا أقبلت عليه الدنيا شك في البعث فما يتأدب حتى يبتليه الله بماله وولده وصحته ، فتراه بعد ذلك ذليلا مخذولا ، أعاذنا الله من مثل حالهم وجعل توكلنا عليه ، وذلنا إليه ، ورغبتنا في رضاه ، لا تغير الدنيا نفوسنا ، ولا تنال من ديننا وعقولنا ، ونعود لتأمل آيات الله فنقول :

لمَّا ظن مشركو مكة أنهم أعلى منزلة ، وأشرف مكانا يأنفون عن مجالسة فقراء المؤمنين ، جاءهم هذا المثل من الله في هذه الآيات ، رجل جعل الله له **((جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا))** يستولي عليه الغرور بالتمادي والتكبر على صاحبه وهو يراجعه بالكلام ويحاوره :

((أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا)) قيل " كان وافر اليسار من كل وجه، متمكنا من عمارة الأرض كيف شاء وَأَعَزُّ نَفَراً يعنى أنصارا وحشما. وقيل: أولادا ذكورا، لأنهم ينفرون معه دون الإناث."

وما يدلك على غروره وظلمه شكه بالبعث بعدها ووصف حاله ، بقول الله تعالى: **((وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾))**

وبدل أن يقابل هذا الرجل صاحب الجنتين إنعام الله عليه بجنتين تؤتيان أكلهما أي تفيان بالثمر ، وقد كفيتا مؤنة الري بنهر يتفجر من خلالهما ، بدل أن يقابل هذا الإنعام شك بإخبار الأنبياء بالبعث والنشور ، والغاية التي خلق لها الإنسان في هذه الدنيا الزائلة ، والشك فيما طلب به التصديق تصديقا جازما كفر ، يدلك عليه قول الرجل الصالح له سائلا إياه سؤالا استنكاريا : **((أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا))** واعترافه بالشرك بعد أن أذهب الله عنه ما كان فيه من النعيم ، وأصبحت جنته خاوية على عروشها : **((وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴿٤٢﴾))**

سبحان الله كلاهما أي الرجلين يحاور ، هذا يحاور في الدنيا ويحاول إثبات ظنونه وشكوكه ، وذاك يحاور في الله ومشيئته ، فلا عجب أن نرى أهل الأهواء والشهوات وإن كانوا على باطل ينافحون عن باطلهم ، فالعاقبة للمتقين ، وإن علت أصوات أهل الباطل ، وتربعت الدنيا على وجوههم ، وخرجوا عن فِطرِهم بفرْط غرورهم فلا بد للعبد من الاعتراف لله بفضله، ولولا فضل الله على العباد لما نال المرء في هذه الدنيا ما يناله من التفضل والإنعام ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا حول للعبد ولا قوة إلا به ، ولهذا رد عليه الرجل الصالح بالقول : **((وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ))**

قال ابن القيم رحمه الله : " المَعْنى: لا يَقْوى أحَدٌ في بَدَنِهِ ولا في مِلْكِ يَدِهِ إلّا بِاللَّهِ تَعالى، ولا يَكُونُ لَهُ إلّا ما شاءَ اللَّهُ "

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ- أَوْ قَالَ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ" قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ" أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى وفي سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ قَالَ - يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - : بِاسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ :كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ ". هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ." حديث صحيح قال ابن القيم رحمه الله في **قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِن جَنَّتِكَ﴾**؛ أيْ: في الآخِرَةِ، **﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْبانًا﴾** وفِيهِ أرْبَعَةُ أقْوالٍ:

أحَدُها: أنَّهُ العَذابُ، رَواهُ العَوْفِيُّ عَنِ ابن عَبّاسٍ، وبِهِ قالَ قَتادَةُ والضَّحّاكُ. وقالَ أبُو صالِحٍ عَنِ ابن عَبّاسٍ: نارًا مِنَ السَّماءِ.

والثّانِي: قَضاءٌ مِنَ اللَّهِ يَقْضِيهِ، قالَهُ ابن زَيْدٍ.

والثّالِثُ: مَرامِي مِنَ السَّماءِ، وأحَدُها: حُسْبانَةٌ، قالَهُ أبُو عُبَيْدَةَ وابن قُتَيْبَةَ. قالَ النَّضِرُ بْنُ شُمَيْلٍ: الحُسْبانُ: سِهامٌ يَرْمِي بِها الرَّجُلَ في جَوْفِ قَصَبَةٍ تُنْزَعُ في القَوْسِ، ثُمَّ يَرْمِي بِعِشْرِينَ مِنها دُفْعَةً، فَعَلى هَذا القَوْلِ يَكُونُ المَعْنى: ويُرْسِلُ عَلَيْها مَرامِي مِن عَذابِهِ، إمّا حِجارَةً أوْ بَرَدًا، أوْ غَيْرَهُما مِمّا يَشاءُ مِن أنْواعِ العَذابِ.

والرّابِعُ: أنَّ الحُسْبانَ: الحِسابُ، كَقَوْلِهِ **﴿الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾ [الرَّحْمَنِ: ٥]**؛ أيْ: بِحِسابٍ، فَيَكُونُ المَعْنى: ويُرْسِلُ عَلَيْها عَذابَ حِسابِ ما كَسَبَتْ يَداهُ، هَذا قَوْلُ الزَّجّاجُ.

وقال رحمه الله : " قَوْلُهُ تَعالى: **﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾** أيْ: أحاطَ اللَّهُ العَذابَ بِثَمَرِهِ، وقَدْ سَبَقَ مَعْنى الثَّمَرِ. **﴿فَأصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾** أيْ: يَضْرِبُ يَدًا عَلى يَدٍ، وهَذا فِعْلُ النّادِمِ. **﴿عَلى ما أنْفَقَ فِيها﴾**؛ أيْ: في جَنَّتِهِ، و " في " هاهُنا بِمَعْنى (عَلى) . **﴿وَهِيَ**

خاوِيَةٌ﴾ أيْ: خالِيَةٌ ساقِطَةٌ، **﴿عَلى عُرُوشِها﴾** والعُرُوشُ: السُّقُوفُ، والمَعْنى: أنَّ حِيطانَها قائِمَةٌ والسُّقُوفُ قَدْ تَهَدَّمَتْ فَصارَتْ في قَرارِها، فَصارَتِ الحِيطانُ كَأنَّها عَلى السُّقُوفِ. **﴿وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أحَدًا﴾** فَأخْبَرَ اللَّهُ تَعالى أنَّهُ لَمّا سَلَبَهُ ما أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وحَقَّقَ ما أنْذَرَهُ بِهِ أخُوهُ في الدُّنْيا، نَدِمَ عَلى شِرْكِهِ حِينَ لا تَنْفَعُهُ النَّدامَةُ. وقِيلَ: إنَّما يَقُولُ هَذا في القِيامَةِ. " **﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾** قَرَأ ابن كَثِيرٍ، ونافِعٌ، وأبُو عَمْرٍو، وعاصِمٌ: **(ولَمْ تَكُنْ)** بِالتّاءِ. وقَرَأ حَمْزَةُ، والكِسائِيُّ، وخَلَفٌ: **(ولَمْ يَكُنْ)** بِالياءِ. والفِئَةُ: الجَماعَةُ، **﴿يَنْصُرُونَهُ﴾**؛ أيْ: يَمْنَعُونَهُ مِن عَذابِ اللَّهِ."

قال الزمخشري في **قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]** الْوَلايَةُ بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك، أي: في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها أحد سواه، تقريرا لقوله وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أو: هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطرّ. يعنى أنّ قوله يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً كلمة ألجئ إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها. "

وقال أيضا : " يعنى: أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدّق قوله فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ ويعضده قوله خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً أى لأوليائه. وقيل هُنالِكَ إشارة إلى الآخرة أى في تلك الدار الولاية لله، كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ "

وفي هذا إرشاد لنا أن التفاضل بين الناس والتكامل لا يكون إلا بمقاييسِ مَن خلق هذا الإنسان على وجه الأرض ، فلا يظننن ظانٌ أن الدنيا إذا أقبلت عليه أن هذا

منتهى الخير ، وإنما هذا ابتلاء ينبغي للإنسان ألا يفتتن به ، وآخر دركات الافتتان الكفر بالمنعم أعاذنا الله من الكفر بالمنعم وتكذيب إخباره .

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا (٤٥) ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (٤٦)

الله أكبر الله أكبر ، ما أعظم كلام الله وما أشد غفلة الناس عنه إذ يضرب لنا الأمثال في القرآن لمعاينة المعاني وكأنها تحت الحس ، وهذا في القرآن كثير أما عن الفائدة من ضرب الأمثال وقد اعتاده أهل الفصاحة من العرب :

فيقول الأصبهاني رحمه الله في : " لضَرْب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثالَ والنظائر، شيء ليس بالخفيّ في إبراز خفيّات الدقائق، ورَفْع الأستار عن الحقائق، تريك به المتخيل في صورة المتحقّق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنه مشاهد، وفي ضَرْب الأمثال تبكيتٌ للخَصْمِ الشديد الخصومة، وقمع لسَوْرَةِ الجامح الأبيّ، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكَثْرَ الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال "

وفي هذا تعليم لإهل الدعوة الى الله أن ينوعوا بالأساليب ، وتصوير المعاني للأذهان ، حتى يتضح المقال وتنفذ الأفكار الى الأفهام ، وتقع المحجة .

في هذه الآية يضرب الله لنا مثل الدنيا وفنائها ليعتبر كل غافل ، ويتعظ كل عاص ، استمسك بأذيالها ، أن خضرتها لن تدوم ، ورحم الله من كان يقول في الدنيا أنها إذا حلت أوحلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أزهرت هرت ، وإذا أقبلت بلت ، فبينا هي ذات خضرة وجمال يزهو بها أهل اللهو والغفلة إذ بها تبدل ثوبها ، وتُظهرُ قبحها ، وتدبر عنهم ، وتحيلهم من نضرة النعيم الى زفرات الجحيم ، ما أغنت

عنهم أموالهم ، ولا دفع عنهم أنصارهم فيها شر ما صاروا إليه ، أعاذنا الله من إيثار ما به الضرر ، وحب ما يعود على المرء بالشرر ، وألزمنا سلوك أهل الأهبة والنظر ، ومحجة أهل الخير والبصر ، اللهم آمين .

نعود لهذا المثل :

ضرب الله مثل الدنيا كالنبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ أن انقطع عنه الماء ، فتناهى نهايته ، فعاد يابسا تذروه الرياح، فاسدا، تنبو عنه أعين الناظرين ، فأول أمره خضرة ونضرة ، وآخر أمره يبسٌ مفتتٌ تذروه الرياح أي تلقيه ، وفي هذا عبرة لمن عظمت الدنيا بعينه فآثرها على الآخرة ، فكفر بربه وعصى ، وتمادى وطغى ، حتى إذا ما ظن استقرار حالها أحالها القوي العزيز عن حالها خسرا ، وأَحصَدَ المغتر بها الى فقره فقرا ، فالأجدر بالعاقل عدم إيثار ما يفنى على ما يبقى ، والمتزن في عقله لا يؤثر الزينة في دار الفناء على العمل لدار البقاء ، قال ابن مسعود -رضي الله عنه -: "من طلب الآخرة أضر بالدنيا، ومن طلب الدنيا أضر بالآخرة، فأضروا بالفاني للباقي".

وفي الحديث **قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)) رواه البخاري في صحيحه** من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما .

أما من يركن للدنيا فإنما يركن إليها مؤثرا لها على الآخرة ، وإيثار الحياة الدنيا كما قال صاحب تفسير حدائق الروح والريحان في تفسير **قوله تعالى ((بل تؤثرون الحياة الدنيا)) الآية** :" هو الرضا بها، والاطمئنان إليها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في **قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا}** الآية، وقيل : المراد بالآية : جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها: ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، والتوجه إلى تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتمامًا

زائدًا على اهتمامهم بالطاعات، والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ، وعلى الثاني كذلك في حق الكفرة، ولتشديد العتاب في حق المسلمين.

وفي "فتح الرحمن": فالكافر يؤثرها إيثار كفر يرى أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس، إلا من عصم الله تعالى."

ومهما عظمت الدنيا في أعين أهلها فمآلها الى الزوال بقدرة الله المقتدر عليها ، وقد مر معنا في الآيات الآنفة الذكر في الرجلين كيف ظن المغرور منهما صاحب الجنتين أنهما لن تبيدا أبداً ، فأتى أمر الله عليهما وأصبحتا خاويتان على عروشهما ، وفي كل هذا عظة لإهل مكة في زوال النعم وحصاد الندم يوم لا ينفع الندم ، إن هم كفروا وأنفوا عن مجالسة النبي حتى يطرد فقراء المؤمنين وعبيدهم ، وتكبروا على أمر الله والدخول في حزب أهل الايمان ، ظنا في أنفسهم أنهم أشرف مكانا ، وأعز جانبا ، بما أعطوا من منصب ومال وولد ، أما عن المال والولد فيقول الله في الآية التي تليها : **(ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا (٤٦))**

وقال تعالى :

((وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ)) الأنفال ٢٨

وقال سبحانه ((وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ)) سبأ ٣٧

وقال سبحانه : ((لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ)) الممتحنة ٣

وقال تعالى ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ)) المنافقون ٩

وقال سبحانه :((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَـٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ))

وربما باع أهل الكفر الايمان بالله لبقاء المال والولد ، وأقترف العصاة من أهل الإسلام المحاذير وخلطوا الحلال بالحرام لوهم تأمين مستقبل الولد وتكثير المال ، فلا المال بقي ولا الولد ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ، فما الأموال إخواني والأولاد إلا فتنة وامتحان ، متى بالغ المرء في حبهما وقدم ذلك الحب على طاعة ربه ، وظن أن قوام أمره إنما يكون بهما هلك وأهلك ، وشتان بينه وبين من عمل صالحا وابتغى بماله وولده وجه الله تعالى ، وقدم حب الله وحب نبيه على سائر الحظوظ الدنيوية الفانية

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم -: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ". رواه البخاري وفي رواية لمسلم "من أهله وماله".

قال الزمخشري في الكشاف : "الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا .

وقيل هي الصلوات الخمس وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

وعن قتادة: كل ما أريد به وجه الله خَيْرٌ ثَواباً أى ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الأمل، لأنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة "

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨)﴾ [الكهف ٤٧-٤٨]

ما أعظمه من مشهد ، وأشد هوله ، يصفه الله لنا كأنه رأي العين ، يقول الطبري في تفسير قوله تعالى : **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾** عن الأرض، فنبسُّها بَسًّا، ونجعلها هباء منبثا **﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾** ظاهرة: وظهورها لرأي أعين الناظرين من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر هو بروزها.

ويضعنا الله في المشهد بقوله **﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾** فلا جبال ولا شجر يحجب أعين الناظرين ، أصبحت هباء منبثاً ، لا ترى في الأرض عوجا ولا أمتا ، وغدت الجبال الراسيات منبسطة تذروها الرياح ، فتأمل هديت المشهد وهي تنسف على عظمها ، بل وتتفتت عن آخرها، جاء في تفسير ابن كثير : " كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطُّورِ:٩، ١٠]** أَيْ: تذهب من أماكنها وتزول، كما **قال تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النَّمْلِ:٨٨] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [الْقَارِعَةِ:٥]** "

وقال تعالى :((وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ طه)) يقول القرطبي في تفسيره : " قَالَ ابن الْأَعْرَابِيّ وَغَيْرُهُ: يَقْلَعُهَا قَلْعًا مِنْ أُصُولِهَا ثُمَّ يُصَيِّرُهَا رَمْلًا يَسِيلُ سَيْلًا، ثُمَّ يُصَيِّرُهَا كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ تُطَيِّرُهَا الرِّيَاحُ هَكَذَا وَهَكَذَا. قَالَ: وَلَا يَكُونُ الْعِهْنُ مِنَ الصُّوفِ إِلَّا الْمَصْبُوغَ، ثُمَّ كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ.

(فَيَذَرُها) [٢٠: ١٠٦] أَيْ يَذَرُ مَوَاضِعَهَا **(قَاعًا صَفْصَفاً)** [٢٠: ١٠٦] القاع الأرض الملساء بِلَا نَبَاتٍ وَلَا بِنَاءٍ ، قَالَهُ ابن الْأَعْرَابِيِّ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْقَاعُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ "

برزت الأرض وبرز الناس معها للحشر ، تبدلت الأرض التي كنا نعهدها ، فلا شجر ولا حجر ولا بناء ، يا لعظم المشهد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، جُمعوا عن آخرهم للعرض ، ولم يغادر الله منهم أحدا ، وفي الحديث من مسند الإمام أحمد :**" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، يَقُولُ : بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ ، فَقَالَ لِلْبَوَّابِ : قُلْ لَهُ : جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ ابن عَبْدِ اللَّهِ : قُلْتُ : نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوْبَهُ، فَاعْتَنَقَنِي، وَاعْتَنَقْتُهُ، فَقُلْتُ : حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنْكَ، أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ، أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ : الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا". قَالَ : قُلْنَا : وَمَا بُهْمًا ؟ قَالَ : " لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةَ ". قَالَ : قُلْنَا : كَيْفَ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا ؟ قَالَ : " بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ".**

حكم الحديث: إسناده حسن

وفي الحديث **عن عائشة رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً، عُرَاةً ، غُرْلًا ". قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ،**

الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قَالَ : " يَا عَائِشَةُ، إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ ".

حكم الحديث: إسناده صحيح على شرط الشيخين

وهنا نكتة بلاغية في الانتقال من الإخبار عن حالهم بالخطاب المتوجه لنبيه ، بقوله : **((وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا))** ثم ينتقل الى الخطاب للعموم بقوله : ((لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ))

ثم يوجه الخطاب للكفار ممن أنكر البعث على وجه الخصوص بالقول :**((بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨)))**

وهذا أبلغ في التقريع وإيقاع الندم والألم في نفس المعاند وإلا فيكفيه من ذلك ما يراه من أهوال الحشر والعرض على الله ، وحصد سوء عمله .

يقول الزمخشري رحمه الله في تفسيره : "وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان صفًّا "

فسبحان الله في سلطانه وملكه كيف يصطف له جميع الخلق ويخاطبهم فيعمم ويخصص وهم وقوف للعرض عليه حفاة عراة غرلا ، وهنا يتجلى البرهان والحقائق التي كانت دليلا لا شك فيه على عظمة الخالق من عظم خلقه ، وعجبا للمعاندين كانوا يرون الجبال وعظمها ، والبحار وغورها ، والسموات ورفعها ، ثم ينكرون وجود خالق لها ، ويكذبون أنبياء الله في ذلك ، لقد كانوا في الدنيا في مهلة تمكنهم من النظر والتفكر والايمان بالخالق الذي تشهد له المخلوقات بالقدرة والعظمة ، وكان بالإمكان الرجوع الى جادة الصواب والاتعاظ ، لشهود العظمة ، لكن غرورهم وعنادهم أبى عليهم الا التعامي ، أما في الآخرة ومع أول مشاهد القيامة ، وشهود العظمة بنسف الجبال ، وقيام الخلائق للحساب حتى لا يبقى في الأرض منهم أحدا ، عندها لا تنفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، فعندنا

شهود للعظمة الإلهية في الدنيا ينتفع بها من أعمل العقل والنظر فقاده للإيمان ، وشهود للعظمة الإلهية في القيامة تقرع العقول وتذهلها ولكنها لا تنفع الكافر والمعاند مع استسلامه في الآخرة ، وكأني بالأرض بسهولها وجبالها وما بث الله فيها تصرخ بالعقول أن تتنبه لشهود عظمة الله فيها ، كما يقال : " سل الأرض من أرسى جبالها وشق أنهارها وجنى ثمارها فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا "

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف ٤٩]

بعد أهوال يوم القيامة واصطفاف الخلق للحساب ، يوضع الكتاب أي صحف الأعمال ، فترى المجرمين خائفين من المعاصي ، وما جنته أيديهم وحصدته قلوبهم من جرم الشرك ، ولمّا عاينوا صحائف الأعمال أيقنوا الهلاك بقولهم:**(يَٰوَيۡلَتَنَا)** لإن الكتاب قد أحصى كل أعمالهم ، لم يترك لهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها عليهم ، فتأمل يا عبد الله مشهدهم وهم يقفون خائفين ، يعاينون هلاكهم بأعينهم ، مالهم عن النار من متحول ، ولا مصرف ، ولا عذر ، ولا صديق ولا نصير ، وقد تمادوا في الدنيا في غيهم ، وتطاولوا في بغيهم ، وما كان هذا إلا على أنفسم ، وقد غرتهم المهلة ، وركبتهم الغفلة ، ذهبت اللذات ، ووقعت الحسرات ، ظلموا أنفسهم بالشرك ، فاستوجبوا في النار الترك ، أعاذنا الله وإياكم إخواني من حالهم ، وشر مآلهم .

ولنرجع إلى الحديث عن صفات المجرمين، ومواقفهم في الدنيا التي أوجبت لهم النار : **قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29)وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31)وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ(32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ(33) (المطففين))** ،

في الدنيا، يقولون في المؤمنين : والله إن هؤلاء لكذَبة وما هم على شيء استهزاءً بهم ، كان الموازين منقلبة في الدنيا لديهم ، يرون الحق باطلا ، ويرون الباطل حقا ، لا بل يرون أهل الحق على باطل فيسخرون منهم أينما حلوا وارتحلوا ، قد وطنوا أنفسهم على أذيتهم ، مطمئنين فاكهين بذلك .

وقال تعالى :

(وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ (١٢٤) الأنعام)

وليسعكم الصبر إخواني في قراءة هذه الآيات من سورة الصافات في وصف المجرمين أهل الكفر ، قال تعالى :

((بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(15) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ (31)فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا

قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ(37) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)))

وقال تعالى :

((كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) ((المدثر))

وقال تعالى :

((وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ(94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ(99))) (الشعراء)

فمن جملة صفاتهم أنهم كانوا مكذبين بالبعث ، يكفرون ويشركون مع الله آلهة أخرى ، وفضلا عن تكذيبهم لرسل الله يصفونهم بِشرِ ما يوصف به الدعاة الى الله - الجنون ، وقول الشعر ، ويقعون في أذيتهم ، وتشرئب أعناقهم تكبرا على ذكر الله ، يخوضون مع كل معاند وجاحد ومجرم ، يتناصرون في الدنيا بالباطل ، ويضلون من تبعهم ممن أعمى بصيرته عن الرجوع الى الحق ، فنال الأتباع بطاعتهم لهم الاشتراك معهم في العذاب الأليم ، وقد صور الله لنا تخاصمهم لما عاينوا العذاب ، واستوجبوا الحرق بالنيران مع شريكهم الأكبر ، ومرشدهم الى سواء الجحيم - إبليس لعنه الله ، ومع كل هذا هم يسخرون بكلام الله ، ويستهزئون برسله ، فما جلبوا خيرا لأنفسهم بالإيمان والطاعة ، ولا جلبوا الخير لغيرهم من

الخلق حتى لو كانوا من أهل الحاجة والعوز ، فأي قلوب خبيثة لهم ، وأي قبح أحاط بهم ، أراح الله الأرض من شرهم ، والناس من مكرهم ، وفي زماننا هذا وجدنا من المجرمين من يقتل مئات الآلاف من الأطفال والنساء والرجال دون أن يكون لهم جريمة ، أو سابق من جريرة في حرب على المؤمنين لا ترقب فيهم إلاً ولا ذمه ، ويسمون الدعاة الى الله بالإرهاب والتطرف ، قد وظفوا قنواتهم الإعلامية ، وأقلامهم المسمومة بالسخرية من الإسلام ودعاته ، وزجوا في غياهب السجون الأتقياء الأنقياء الأصفياء من أهل العلم والورع ، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

والملاحظ أن سمة الإجرام سمة ملازمة للكفر مصداقا لقوله تعالى من سورة القلم **((أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ))** وقوله تعالى:

((هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ)) الرحمن [43]

((وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢))) الدخان[٢٢]

وفي سؤال إبراهيم عليه السلام للملائكة في **قوله تعالى ((قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60))) (الحجر)**

عَنِ الْحَسَنِ في **قوله تعالى :{ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ }، قَالَ : الشِّرْكُ. ((إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)) الزخرف 74**

وقال ابن الجوزي رحمه الله في" قَوْله تَعالى: ﴿**فَتَرى المُجْرِمِينَ**﴾ قالَ مُجاهِدٌ: هُمُ الكافِرُونَ. وذَكَرَ بَعْضُ أهْلِ العِلْمِ أنَّ كُلَّ مُجْرِمٍ ذُكِرَ في القُرْآنِ، فالمُرادُ بِهِ: الكافِرُ أعاذنا الله من سبيلهم ، وشر مقيلهم ."

أما عن كتاب أعمالهم فقد أحصى الله فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير ، **ورَوَى الطَّبَرَانِيُّ، بِإِسْنَادِهِ إلى سعد ابن جُنَادَةَ قَالَ: لَمَّا فَرَغَ**

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ حُنَيْن، نَزَلْنَا قَفْرًا مِنَ الْأَرْضِ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اجْمَعُوا، مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ، وَمَنْ وَجَدَ حَطَبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ. قَالَ: فَمَا كَانَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى جَعَلْنَاهُ رُكامًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَتَرَوْنَ هَذَا؟ فَكَذَلِكَ تُجْمَع الذُّنُوبُ عَلَى الرَّجُلِ مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُم هذا. فليتق الله رجل ولا يُذْنِبْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، فَإِنَّهَا مُحْصَاة عَلَيْهِ " المعجم الكبير .

وقال الماوردي في تفسيره النكت والعيون في قوله" **((وَيَقُولُونَ يا ويْلَتَنا مالِ هَذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلا أحْصاها))** وفي الصَّغِيرَةِ تَأْوِيلانِ: أحَدُهُما: أنَّهُ الضَّحِكُ، قالَهُ ابن عَبّاسٍ.

الثّانِي: أنَّها صَغائِرُ الذُّنُوبِ الَّتِي تُغْفَرُ بِاجْتِنابِ كَبائِرِها.

وَأمّا الكَبِيرَةُ فَفِيها قَوْلانِ: أحَدُهُما: ما جاءَ النَّصُّ بِتَحْرِيمِهِ.

الثّانِي: ما قُرِنَ بِالوَعِيدِ والحَدِّ.

وَيَحْتَمِلُ قَوْلًا ثالِثًا: أنَّ الصَّغِيرَةَ الشَّهْوَةُ، والكَبِيرَةَ العَمَلُ.

قالَ قَتادَةُ: اشْتَكى القَوْمُ الإحْصاءَ وما اشْتَكى أحَدٌ ظُلْمًا، وإيّاكم والمُحَقَّراتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإنَّها تَجْتَمِعُ عَلى صاحِبِها حَتّى تُهْلِكَهُ.

﴿**وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا**﴾ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ: أحَدُهُما: ووَجَدُوا إحْصاءَ ما عَمِلُوا حاضِرًا في الكِتابِ.

الثّانِي: ووَجَدُوا جَزاءَ ما عَمِلُوا عاجِلًا في القِيامَةِ.

﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدًا**﴾ يَعْنِي مِن طائِعٍ في نُقْصانِ ثَوابِهِ، أوْ عاصٍ في زِيادَةِ عِقابِه"

وقال ابن القيم في قوله ﴿**((وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً))** أي: لا يجازي ربك يا محمد أحداً بغير ما هو أهله ، أي لا يجازي بالإحسان إلا أهل الإحسان ، ولا بالسيئات إلا أهل السيئة.

وتحقيقه: لا يضع ربك العقوبة إلا في موضعها لأن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه .

قال تعالى : ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)))

بالرجوع الى بعض كتب التفسير وجدتها غاصة بنسبة إبليس الى الملائكة في الأصل ، وها أنا ذا أنقل لكم بعضها :

ومع أن ابن كثير يُضعِّفُ ويوهي هذا القول إلا أنه من إنصافه رحمه الله ذكره في تفسيره ونسبه الى قائله : فقال "قَالَ الضَّحَّاكُ أَيْضًا، عَنِ ابن عَبَّاسٍ: كَانَ إِبْلِيسُ مِنْ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ وَأَكْرَمُهُمْ قَبِيلَةً، وَكَانَ خَازِنًا عَلَى الْجِنَانِ، وَكَانَ لَهُ سُلْطَانُ [السَّمَاءِ] الدُّنْيَا وَسُلْطَانُ الْأَرْضِ، وَكَانَ مِمَّا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ لَهُ بِذَلِكَ شَرَفًا عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، فَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ كِبْرٌ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. فَاسْتَخْرَجَ اللَّهُ ذَلِكَ الْكِبْرَ مِنْهُ حِينَ أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ "فَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: وَقَوْلُهُ: **﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾** أَيْ: مِنْ خُزَّانِ الْجِنَانِ، كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَكِّيٌّ، وَمَدَنِيٌّ، وَبَصْرِيٌّ، وَكُوفِيٌّ.

وَقَالَ ابن جُرَيْجٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ، نَحْوَ ذَلِكَ."

وأورد أيضا " وَقَالَ ابن إِسْحَاقَ، عَنْ خَلاد بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ طاووس، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ إِبْلِيسُ -قَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ الْمَعْصِيَةَ-مِنَ الْمَلَائِكَةِ، اسْمُهُ عَزَازِيلُ، وَكَانَ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ. وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الْمَلَائِكَةِ اجْتِهَادًا وَأَكْثَرِهِمْ عِلْمًا. فَذَلِكَ دَعَاهُ إِلَى الْكِبْرِ، وَكَانَ مِنْ حَيٍّ يُسَمَّوْنَ جِنًّا."

"هُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عَنْ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلَةً مِنَ الْجِنِّ، وَكَانَ إِبْلِيسُ مِنْهَا، وَكَانَ يَسُوسُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فَعَصَى، فَسَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَمَسَخَهُ

شَيْطَانًا رَجِيمًا -لَعَنَهُ اللَّهُ-مَمْسُوخًا، قَالَ: وَإِذَا كَانَتْ خَطِيئَةُ الرَّجُلِ فِي كِبْر فَلَا تَرْجُه، وَإِذَا كَانَتْ فِي مَعْصِيَةٍ فَارْجُهُ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر أَنَّهُ قَالَ: كَانَ مِنَ الْجَنَّانِينَ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْجَنَّةِ."

ومع أن هذا قول بعض المفسرين إلا أن هناك من أنكره وقال بخلافه منهم ابن كثير رحمه الله ونوه الى أن هناك ما هو من الاسرائيليات فقال : " وَقَدْ رُوي فِي هَذَا آثَارٌ كَثِيرَةٌ عَنِ السَّلَفِ، وَغَالِبُهَا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي تُنْقَلُ لِيُنْظَرَ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ كَثِيرٍ مِنْهَا"

وقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قَط، وَإِنَّهُ لَأَصْلُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَصْلُ الْبَشَرِ. رواه ابن جرير بإسناد صحيح [عنه] والقول بإن إبليس أصل الجن أراه بعيدا ، ولا دليل عليه والله أعلم ، سواء أكانت **((من))** في قوله تعالى **((من الجنِّ))** للتبعيض أو لبيان الجنس .

والصحيح بصريح النص أنه ليس من الملائكة لأمور عدة أولاها :

عَصْمَةُ المَلائِكَةِ مِنِ ارْتِكابِ المعصية والكُفْرِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ إبْلِيسُ. كَما قالَ تَعالى عَنْهم: **﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أمَرَهم ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]**

وأن في الآية تنبيها بقوله تعالى في إبليس **" إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ "** ففي هذا والله أعلم استثناءٌ منقطعٌ، وإخراجٌ له من الملائكة ، ولكن ربما يقول قائل إن الأمر بالسجود توجه الخطاب به الى الملائكة ولو لم يكن إبليس ملكاً لما دخل في الخطاب **!** وللرد على هذا القول نقول وبالله التوفيق

الاستثناء هنا منقطع، وهو أن لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه وذلك نحو: ما جاءني أحد إلا حماراً. والاختيار فيه النصب ، وهو مشهور في كلام العرب قال تعالى: **(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني)** والله عز وجل ليس من معبوداتهم حتى يستثنى وإنما هو استثناء منقطع،

وكقولِه: **{لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلَامًا} [الواقعة: الآيتان 25، 26]** فالسلامُ ليس من جنسِ اللغوِ، وهو كثيرٌ في كلامِ العربِ

وإبليس ومع أنه ليس من الملائكة أُمرَ بالسجود والدليل على ذلك قول الله تعالى **((إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ))** وفي سورة البقرة **قوله تعالى :((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ))** فالفسق والإباء لا يكون إلا بعد الأمر بالطاعة، فلا يقال لمن لم يتوجه له الأمر بالطاعة أنه أبى وفسق حتى يؤمر بها، إذن فقد توجه الخطاب لإبليس بالسجود لآدم فأبى إبليس وفسق ، وقد يسأل سائل فيقول : ما السر في عدم ذكر خطاب إبليس بالسجود وتكراره له والاكتفاء بذكر عصيانه وإبائه ، والجواب والله أعلى وأعلم : أن إبليس كانت له منزلة خاصة ، لم يدركها لغروره وحمقه ، فقد وجه الله للملائكة بمجملهم خطابا، ووجه خطابا خاصا له ، فلما عصى وأبى السجود انتفى عنه كل تشريف ، وسقطت عنه كل أثواب العز ، لدرجة لا يذكر معها أي تكريم بتوجيه الخطاب المخصوص له، وفي الخطاب أيضا إقصاء لإبليس عن عباد الله المكرمين **(الملائكة)** وتنزيها لهم بتسوية الخطاب مع إبليس ، وأيضا ففي الخطاب بصيغة التعظيم لله بقوله " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ " وآدم لم يجرِ عليه القلم ، إفراد وإقصاء وتحقير لإبليس بالكفر والعصيان ، أعاذنا الله وإياكم إخواني من إبليس وجنده ، وهمزه ولمزه ولمسه .

ولنُضف للجواب أيضاً، أن الملائكة خلقت من نور، فخلقها مغاير لخلق الجان الذي هو من النار، روى مسلم في صحيحه عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ ".

مارج النار: لهبها المختلط بسوادها.

وهذا فيما احتج به إبليس على ربه في **قوله تعالى: ((قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ))**

ثم أن لإبليس ذرية **((أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي))** والملائكة ليس منهم ذكوراً ولا اناثاً .

يقول الشنقيطي في قوله تعالى :

((أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا))

" وَقَدْ بَيَّنَ في غَيْرِ هَذا المَوْضِعِ: أنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ بَدَلًا مِن ولايَةِ اللَّهِ يَحْسَبُونَ أنَّهم في ذَلِكَ عَلى حَقٍّ. كَقَوْلِهِ تَعالى: **﴿إنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ مِن دُونِ اللَّهِ ويَحْسَبُونَ أنَّهم مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]**، وبَيَّنَ في مَواضِعَ أُخَرَ أنَّ الكُفّارَ أوْلِياءُ الشَّيْطانِ. كَقَوْلِهِ تَعالى: **﴿والَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ الطّاغُوتِ فَقاتِلُوا أوْلِياءَ الشَّيْطانِ﴾ [النساء: ٧٦]**، وقَوْلِهِ تَعالى: **﴿إنّا جَعَلْنا الشَّياطِينَ أوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]**، وقَوْلِهِ تَعالى: **﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]**، وقَوْلِهِ: **﴿إنَّما ذَلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهم وخافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]**، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ."

وأختم هنا بكلام رائع لابن القيم رحمه الله في هذه الآية يغني عن الكثير من القول ، واعذروني على الإطالة فما رمت منها إلا الإفادة ، إليكم تعليق ابن القيم رحمه الله : " يَقُولُ سُبْحانَهُ لِعِبادِهِ: أنا أكْرَمْتُ أباكُمْ، ورَفَعْتُ قَدْرَهُ، وفَضَّلْتُهُ عَلى غَيْرِهِ، فَأمَرْتُ مَلائِكَتِي كُلَّهم أنْ يَسْجُدُوا لَهُ، تَكْرِيمًا لَهُ وتَشْرِيفًا، فَأطاعُونِي، وأبى عَدُوِّي وعَدُوُّهُ، فَعَصى أمْرِي، وخَرَجَ عَنْ طاعَتِي، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكم بَعْدَ هَذا أنْ تَتَّخِذُوهُ وذُرِّيَّتَهُ أوْلِياءَ مِن دُونِي، فَتُطِيعُونَهُ في مَعْصِيَتِي، وتُوالُونَهُ في خِلافِ مَرْضاتِي وهم أعْدى عَدُوٍّ لَكُمْ؟ فَوالَيْتُمْ عَدُوِّي وقَدْ أمَرْتُكم بِمُعاداتِهِ، ومَن والى أعْداءَ المَلِكِ،

كانَ هو وأعْداؤُهُ عِنْدَهُ سَواءً، فَإنَّ المَحَبَّةَ والطّاعَةَ لا تَتِمُّ إلّا بِمُعاداةِ أعْداءِ المُطاعِ ومُوالاةِ أوْلِيائِهِ، وأمّا أنْ تُوالِيَ أعْداءَ المَلِكِ ثُمَّ تَدَّعِي أنَّكَ مُوالٍ لَهُ، فَهَذا مُحالٌ.

هَذا لَوْ لَمْ يَكُنْ عَدُوُّ المَلِكِ عَدُوًّا لَكُمْ، فَكَيْفَ إذا كانَ عَدُوَّكم عَلى الحَقِيقَةِ، والعَداوَةُ الَّتِي بَيْنَكم وبَيْنَهُ أعْظَمُ مِنَ العَداوَةِ الَّتِي بَيْنَ الشّاةِ وبَيْنَ الذِّئْبِ؟ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالعاقِلِ أنْ يُوالِيَ عَدُوَّهُ عَدُوَّ ولِيِّهِ ومَوْلاهُ الَّذِي لا مَوْلى لَهُ سِواهُ، ونَبَّهَ سُبْحانَهُ عَلى قُبْحِ هَذِهِ المُوالاةِ بِقَوْلِهِ: **﴿وَهم لَكم عَدُوٌّ﴾**، كَما نَبَّهَ عَلى قُبْحِها بِقَوْلِهِ تَعالى: **﴿فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ﴾**، فَتَبَيَّنَ أنَّ عَداوَتَهُ لِرَبِّهِ وعَداوَتَهُ لَنا، كُلٌّ مِنهُما سَبَبٌ يَدْعُو إلى مُعاداتِهِ، فَما هَذِهِ المُوالاةُ؟ وما هَذا الِاسْتِبْدالُ؟ بِئْسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلًا.

وَيُشْبِهُ أنْ يَكُونَ تَحْتَ هَذا الخِطابِ نَوْعٌ مِنَ العِتابِ لَطِيفٌ عَجِيبٌ وهو أنِّي عادَيْتُ إبْلِيسَ إذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأبِيكم آدَمَ مَعَ مَلائِكَتِي فَكانَتْ مُعاداتُهُ لِأجْلِكُمْ، ثُمَّ كانَ عاقِبَةُ هَذِهِ المُعاداةِ أنْ عَقَدْتُمْ بَيْنَكم وبَيْنَهُ عَقْدَ المُصالَحَةِ. "

قال تعالى :

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(51) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52)وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53) ﴾

جاء في تفسير ابن كثير

" هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَبِيدٌ أَمْثَالُكُمْ، لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقِي لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مَوْجُودِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: أَنَا الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَحْدي، لَيْسَ مَعِي فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ وَلَا وَزِيرٌ، وَلَا مُشِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ، كَمَا قَالَ: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ**

مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الْآيَةَ [سَبَإٍ: ٢٣، ٢٢] ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ قَالَ مَالِكٌ: أَعْوَانًا. "

وقال القرطبي في تفسيره الجامع في ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**﴾

قِيلَ: الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ، أَيْ لَمْ أُشَاوِرْهُمْ فِي خلق السموات وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ خَلَقْتُهُمْ عَلَى مَا أَرَدْتُ. وَقِيلَ: مَا أَشْهَدْتُ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ خلق السموات وَالْأَرْضِ **"وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ"** أَيْ أَنْفُسِ الْمُشْرِكِينَ فَكَيْفَ اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي؟. وَقِيلَ: الْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: **"مَا أَشْهَدْتُهُمْ"** تَرْجِعُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وإلى الناس بالجملة فتضمن الْآيَةُ الرَّدَّ عَلَى طَوَائِفَ مِنَ الْمُنَجِّمِينَ وَأَهْلِ الطَّبَائِعِ وَالْمُتَحَكِّمِينَ مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَسِوَاهُمْ مِنْ كُلِّ من يتخوض فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.)) ويكمل رحمه الله في قوله تعالى :((**(وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ)** يَعْنِي الشَّيَاطِينَ. وَقِيلَ: الْكُفَّارُ.

(عَضُداً) أَيْ أَعْوَانًا يُقَالُ: اعْتَضَدْتُ بِفُلَانٍ إِذَا اسْتَعَنْتُ بِهِ وَتَقَوَّيْتُ .))

يقول ابن الجوزي رحمه الله :

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ما أَشْهَدْتُهم خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضِ﴾ وقَرَأ أبُو جَعْفَرٍ وشَيْبَةُ: **(ما أشْهَدْناهم)** بِالنُّونِ والألِفِ.

وَفِي المُشارِ إلَيْهِمْ أرْبَعَةُ أقْوالٍ:

أحَدُها: إبْلِيسُ وذُرِّيَّتُهُ. والثّانِي: المَلائِكَةُ. والثّالِثُ: جَمِيعُ الكُفّارِ. والرّابِعُ: جَمِيعُ الخَلْقِ، والمَعْنى: إنِّي لَمْ أُشاوِرْهم في خَلْقِهِنَّ، وفي هَذا بَيانٌ لِلْغَناءِ عَنِ الأعْوانِ وإظْهارُ كَمالِ القُدْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلا خَلْقَ أنْفُسِهِمْ﴾؛ أيْ: ما أشْهَدْتُ بَعْضَهم خَلْقَ بَعْضٍ، ولا اسْتَعَنْتُ بِبَعْضِهِمْ عَلى إيجادِ بَعْضٍ.))

فسبحان الله في عظيم خلقة ، وكمال قدرته ، وتفرده بإيجاد الخلق ، ليس له شريك ولا ند ولا نظير ، وكل ما ادعي أنه إله من دونه ما هو إلا مخلوق من مخلوقاته ، ما شهد خلق نظيره فضلا عن شهوده خلق السموات والأرض ، وفي هذا من الرد ما يبدد أباطيل من ادعى لله شريكا يعبد من دونه ، وفي هذا إشارة الى أن ما كان لوجوده بداية ، فإنما هو مخلوق لا يستحق العبادة ، فما جاز عليه العدم عليه قطعا يستحيل القِدَم .

((وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52)))

قال ابن كثير رحمه الله ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخاطب بِهِ المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا:

﴿**نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾ أَيْ: فِي دَارِ الدُّنْيَا، ادْعُوهُمُ الْيَوْمَ، يُنْقِذُونَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ))

جاء في لسان العرب ((وقال الليث سمعت أَهل العربية يقولون إذا قيل ذكر فلان كذا وكذا فإنما يقال ذلك لأَمر يُسْتَيْقَنُ أَنه حق وإذا شُكَّ فيه فلم يُدْرَ لعله كذبٌ أَو باطل قيل زَعَمَ فلان))

وجاء في المغني قوله (("زَعَمَ أَنَّ" : اِدَّعَى، أَي قَالَ قَوْلاً حَقّاً أَوْ باطِلاً، وَيُسْتَعْمَلُ في الشَّكِّ والظَّنِّ وَما يُعْتَقَدُ أَنَّهُ كَذِبٌ.))

والسؤال : ألم يتبين لهم في الدنيا الحق من الباطل في زعمهم حتى يتبين باطل ما كانوا عليه في الآخرة وهم بمواجهة العذاب ؟

وللجواب على هذا السؤال نقول : إن الله عز وجل وهب للخلق عقولاً جعلها محل الإقرار والتكليف ، لا يسعها مع الحقائق العقلية ، والعلوم القطعية إلا التصديق الجازم ، ومع العقل الذي هو محل النظر أرسل الله الرسل المؤيدة بالمعجزات

الدالة على صدق الرسالة ، وأنزل الكتب ، وجعل للإنسان شاهداً عليه من فطرته ، فإذا تعدى المخلوق كل هذا وادعى كذبا على المرسِل والمرسَل والرسالة ما لا ينبغي ، كان مستحقا يوم القيامة للتوبيخ ممن ادعى له الشريك والولد بشهود عاقبة الإشراك والكفر مع العذاب ، فالذي لا تقرع عقله الأدلة والحجج ، تصليه من النار اللجج ، أعاذنا الله وإياكم من النار ولججها ، وحممها وزقومها وغساقها ، وحال صحابها .

فائدة : ألا ترى أننا الآن في الدنيا نقرأ هذا المشهد الذي يصوره لنا القرآن ، وقد يسمع ويقرأ هذا المشهد الكفار والمشركون ،ومع هذا لا يرعوون ، ولا يحُدث فيهم توبة أو أوبه !!

وقوله سبحانه : **((وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52)))**

قال ابن كثير رحمه الله : ((قَالَ ابن عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَهْلِكًا .

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَمْرًا الْبِكَالِيَّ حَدَّثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: هُوَ وَادٍ عَمِيقٌ، فُرق بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: **﴿مَوْبِقًا﴾** وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ.

وَقَالَ ابن جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سِنان الْقَزَّازُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ دِرْهَمٍ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: **﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾** قَالَ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: **﴿مَوْبِقًا﴾** : عَدَاوَةً.

وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ هَاهُنَا: أَنَّهُ الْمَهْلَكُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ غَيْرَهُ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلَكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ))

﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا (٥٣)﴾ [الكهف ٥٢-٥٣]

جاء في تفسير ابن كثير قوله : ((**﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾** أَيْ: إِنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ، تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لَهُمْ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ وُقُوعِهِ، عَذَابٌ نَاجِزٌ.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ يَعْدِلُ بِهِمْ عَنْهَا وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا.....

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابن لَهِيعَةَ، حَدَّثَنَا دَرَّاجٍ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ، **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُنْصَبُ الْكَافِرُ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ، وَيَظُنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مسيرة أربعين سنة"(رواه أحمد في المسند)))**

فتأمل هُديت في حال من أشرك وكفر من المجرمين عندما لا يكون له مهرب ولا مصرف ولا ملاذ مما جنى على نفسه إلا النار ، ويرى أنها مهاده بعد ذلك ماله عنها من متحول ، والله لو نال ملاذ الدنيا بأجمعها فإنها لا تساوي غَمَهُ والنار تلقاء وجهه فضلا عما ينتظره من العذاب ، أعاذنا الله وإياكم من النيران ، وهمس الشيطان ، وأدخلنا الجنان بصحبة الأهل والأقران .

قال تعالى : ((﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا (٥٥) وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ

إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا (٥٦) [الكهف ٥٤-٥٦]))

يكفي من المالك الملك، الخالق المتصرف في شؤون الخلق ، والمتفضل عليهم - أن يأمرهم بما يشاء ولا يسعهم بعدها إلا طاعته ، وبالأخص عندما يريهم من الآيات والحجج ما لا يسعهم إنكاره ، ويضرب لهم من الأمثال ما لا يسعهم إلا تذكاره ، ولكن عجباً للإنسان كيف يسوغ لنفسه الجدال بالباطل بعدما تبينت له الآيات ، وظهرت له على أيدي المرسلين المعجزات ، وإن كان الجدل في جبلة الإنسان فينبغي أن يكون لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، أما أن يكون لإبطال الحق وتقرير الباطل فهذا ما تنكره الفِطر السليمة ، والطبائع المستقيمة، والعقول المستنيرة، لهذا نُذكر دائما من يُصِّدرُ نفسه للجدال بتصحيح النية، والتواضع للحق، وهذا أصل عظيم يجدر بنا دائما التيقظ له .

ولما يُعدم المجادل بالباطل المحجة، بعدما تفحمه الحجة، يلجأُ الى أسلوب درج عليه من الأمم السابقة من درج ... إنه أسلوب الاستهزاء والسخرية، بل وإلحاق الأذى بمن يطلب لهم الخير من الأنبياء والصالحين، وهذا يذكرني بأخ في الله وضع في سجن للظالمين بمصر وكان رجلا صلباً لديه من القدرة على احتمال الأذى ما لديه ، وقد قال لي بكيت وأنا أعذب وما أبكاني إلا أن الذي يعذبني مثلي ممن أطلب له الخير ، نعم إن القلب ليعتصر حزنا وأسىً ممن تطلب خيره ويريد ضرك، إنه الكبر وخبث النفس ، وسوء الطوية، وإلف التقليد ولو كان شراً ، أعاذنا الله وإياكم إخواني من مثل حالهم ، وجعلنا ممن يحق الحق ويبطل الباطل .

جاء في تفسير أبو السعود قوله ((﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنا**﴾ أيْ: كَرَرْنا وأوْرَدْنا عَلى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّظْمِ.

﴿فِي هَذا القرآن لِلنّاسِ﴾ مَصْلَحَتِهِمْ ومَنفَعَتِهِمْ.

﴿**مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ مِن جُمْلَتِهِ ما مَرَّ مِن مَثَلِ الرَّجُلَيْنِ، ومَثَلِ الحَياةِ الدُّنْيا، أوْ مِن كُلِّ نَوْعٍ مِن أنْواعِ المَعانِي البَدِيعَةِ الدّاعِيَةِ إلى الايمان الَّتِي هي في الغَرابَةِ، والحُسْنِ، واسْتِجْلابِ النَّفْسِ كالمَثَلِ لِيَتَلَقَّوْهُ بِالقَبُولِ فَلَمْ يَفْعَلُوا.

﴿**وَكانَ الإنْسانُ**﴾ بِحَسَبِ جِبِلَّتِهِ ﴿**أكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا**﴾ أيْ: أكْثَرَ الأشْياءِ الَّتِي يَتَأتّى مِنها الجَدَلُ، وهو هَهُنا شِدَّةُ الخُصُومَةِ بِالباطِلِ، والمُماراةِ مِنَ الجَدْلِ الَّذِي هو الفَتْلُ. والمُجادَلَةُ المُلاواةُ؛ لِأنَّ كُلًّا مِنَ المُجادِلَيْنِ يَلْتَوِي عَلى صاحِبِهِ. وانْتِصابُهُ عَلى التَّمْيِيزِ، والمَعْنى: أنَّ جَدَلَهُ أكْثَرُ مِن جَدَلِ كُلِّ مُجادِلٍ))

وعندما نقرأ الآية التي تليها يكشف لنا الله أن حال هؤلاء كحال الأمم السالفة التي أبت الايمان حتى جاءها أمر الله وعذابه فلم ينفعها بعد إيمانها ، وهذا كحال بعض البهائم فان منها ما لا ينصاع إلا بإيقاع الألم عليه ، واستذكار الإحساس به ، لإنها عدمت العقل والنظر الذين يُستجلب الخير بهما ، ويستدفع الشر بهما كذلك ، وهؤلاء المعرضين عطلوا عقولهم حتى غدوا كمن عدمها ، قال تعالى ((﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال ٢٢]) أورد الطبري في تفسره ، ((قال ابن زيد في قوله: ﴿**إن شر الدوابّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**﴾ ، وليس بالأصم في الدنيا ولا بالأبكم، ولكن صمّ القلوب وبُكمها وعُميها! وقرأ: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ **[سورة الحج: ٤٦]** .))

قال ابن عطية رحمه الله في تفسير **قوله تعالى: ((وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا (٥٥)))**

هَذِهِ آيَةُ تَأسُّفٍ عَلَيْهِمْ، وتَنْبِيهٍ عَلى فَسادِ حالِهِمْ؛ لِأنَّ هَذا المَنعَ لَمْ يَكُنْ بِقَصْدٍ مِنهم أنْ يَمْتَنِعُوا لِيَجِيئَهُمُ العَذابُ، وإنَّما امْتَنَعُوا هم مَعَ اعْتِقادِهِمْ أنَّهم مُصِيبُونَ، لَكِنَّ الأمْرَ في نَفْسِهِ يَسُوقُهم إلى هَذا، فَكَأنَّ حالَهم يَقْتَضِي التَأسُّفَ عَلَيْهِمْ، و"**الناسُ**" يُرادُ بِهِ

كُفّارُ عَصْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ تَوَلَّوْا دَفْعَ الشَرِيعَةِ وتَكْذِيبَها و"الهُدى" هو شَرْعُ اللهِ تَعالى، والبَيانُ الَّذِي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، و"الِاسْتِغْفارُ" هُنا طَلَبُ المَغْفِرَةِ عَلى فارِطِ الذَنْبِ كُفْرًا وغَيْرَهُ. و﴿**سُنَّةُ الأوَّلِينَ**﴾ هي عَذابُ الأُمَمِ المَذْكُورَةِ مِنَ الغَرَقِ والصَيْحَةِ والظُلَّةِ والرِيحِ وغَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿**أو يَأْتِيَهُمُ العَذابُ قُبُلا**﴾، أيْ: مُقابِلَةً عِيانًا، والمَعْنى عَذابًا غَيْرَ المَعْهُودِ.

وقال البيضاوي رحمه الله فيها :((

﴿**وَما مَنَعَ النّاسَ أنْ يُؤْمِنُوا**﴾ مِنَ الايمان. ﴿**إذْ جاءَهُمُ الهُدى**﴾ وهو الرَّسُولُ الدّاعِي والقُرْآنُ المُبِينُ.

﴿**وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ**﴾ ومِنَ الِاسْتِغْفارِ مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿**إلا أنْ تَأْتِيَهم سُنَّةُ الأوَّلِينَ**﴾ إلّا طَلَبُ أوِ انْتِظارُ أوْ تَقْدِيرُ أنْ تَأْتِيَهم سُنَّةُ الأوَّلِينَ، وهي الِاسْتِئْصالُ فَحُذِفَ المُضافُ وأُقِيمَ المُضافُ إلَيْهِ مَقامَهُ ﴿**أوْ يَأْتِيَهُمُ العَذابُ**﴾ عَذابُ الآخِرَةِ. ﴿**قُبُلا**﴾ عَيانًا.))

وحالهم هذه شبيهة بحال من سبقهم

((﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٣٢]))

وقوله تعالى ((﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٩)﴾ [العنكبوت ٢٨-٢٩]))

وقال تعالى :

((﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾ [الفرقان ٢١-٢٢]))

يقول الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله: ((لقد جهل هؤلاء أو أغفلوا حقيقة الرسالات ، فأخذوا يقترحون على الأنبياء الآيات : **((وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا (٩٠) أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا (٩١) أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا (٩٣) [الإسراء ٩٠-٩٣]))**

فأي غباء وكبر لدى هؤلاء المعرضين عن محجة الايمان ، وحجج العقل في الإسلام ، تحدوا ربهم بإيقاع الهلاك بهم واستعجلوا عذاب الله بهم ، حتى يتبينوا صدق أنبيائهم ، ودعوة رسلهم ، وهذا كحال من تصدع بيته وأوشك على السقوط ودعاه أهل الخبرة بالخروج من بيته فقال لهم ، لا ضير سأتبين صدق كلامكم حتى يسقط علي ، حتى سقط عليه وهلك .

ويورد الطبري رحمه الله القول في تأويل **قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾**

يقول عزّ ذكره: وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الايمان والتصديق بالله بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهل الكفر به والتكذيب، عظيم عقابه، وأليم عذابه، فينتهوا عن الشرك بالله، وينزجروا عن الكفر به ومعاصيه **﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** يقول: ويخاصم الذين كذّبوا بالله ورسوله بالباطل، ذلك كقولهم للنبيّ ﷺ: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أوّل الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصمونه به، يبتغون إسقاطه، تعنيتا له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم

رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مبشرين أهل الايمان بالجنة، ومنذرين أهل الكفر بالنار، وأنتم تجادلونهم بالباطل طلبا منكم بذلك أن تبطلوا الحقّ الذي جاءكم به رسولي، وعنى بقوله: ﴿**لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ ليبطلوا به الحقّ ويزيلوه ويذهبوا به. يقال منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دَحْض: أي مُزِل مُزْلِق لا يثبت فيه خفّ ولا حافر ولا قدم .

يقول الشيخ كشك رحمه الله في رحاب التفسير ((إنهم واهمون عندما يظنون أنهم بباطلهم يستطيعون أن يزيلوا الحق ويدحضوه ويمحوه . إن الشمس هي الشمس لا يستطيع أحد أن يطفئ نورها بفمه ((**يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩)) [الصف ٨-٩]))))**

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59) ﴾ الكهف

قال القرطبي في قَوْلُهُ تَعَالَى: "﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها**﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ لِنَفْسِهِ مِمَّنْ وُعِظَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَتَهَاوَنَ بِهَا وَأَعْرَضَ عَنْ قَبُولِهَا.

(وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَداهُ) أَيْ تَرَكَ كُفْرَهُ وَمَعَاصِيَهُ فَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، فالنسيان هنا بمعنى الترك قيل: الْمَعْنَى نَسِيَ مَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ وَحَصَّلَ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

(إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً) بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، أَيْ نَحْنُ مَنَعْنَا الايمان مِنْ أَنْ يَدْخُلَ قُلُوبَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ."

أعظم الظلم الإعراض عن الايمان والمضي في الكفر والعصيان ، ومن كان هذا حاله أذن لنفسه من الله بالطبع على القلب ، حتى يغدو كالبهيمة لا يتفهم ما يقال له لما حل به من صمم في القلب وعمى ، كأن في أذنيه ثقلاً تمج به أذنيه كل موعظة ولا ينتفع مع وجود الحُجُب على قلبه من دعوة خير ، وهذا كله من عواقب الإعراض عن الايمان ، وترك الإنسان نفسه في العصيان ، ومعنى النسيان هنا الترك بقوله تعالى **((ونسي ما قدمت يداه))** وإن كان الخطاب هنا متوجها الى كفار قريش فإن هذا قد يكون متحصلا أيضا لإهل الفجور والفسق والعصيان ، حتى إنك لترى أهل الكفر والإعراض ممن طعنت سنه ، ورق عظمه ليبقى على حاله معاندا فاجراً فاسقا لا يرعوي ولا يرجع، كلما شطن به العمر شط في فجوره ، ووطن نفسه على عداوة الصالحين من الدعاة الى الله .

وفي الآية**((إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا))** ومعنى(أكنة) أي أغطية ، ومعنى (وقرا) أي ثقلا وصمما، يظهر لنا أن من أعظم أنواع عقوبات الكفر والعصيان ، وعدم سلوك طريق أهل الايمان -الجهل وعدم الفهم المبعد عن طريق الهداية حتى قال **((وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا))** قال القرطبي في تفسيره **" (وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى)** أَيْ إِلَى الايمان، **(فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)** نزلَ فِي قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ **"**

وعجبا لمن يدَّعى هداية نفسه فيأبى لها إلا الضلال ، وسوء الفعال ، فأي ظلم يظلمه الإنسان لنفسه في ركوب الكفر ، من تعطيل الفكر ، وقتل الفهم ، والإصرار على الرذائل ، ومحاربة الفضائل ، وملازمة الغواية ، ومناوأة الهداية ، اختار لقلبه الموت ، ولعمره الفوت قبل الموت ، فكم من ميت قبل الموت ، **قال تعالى :﴿أَوَمَن**

كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام ١٢٢]

ولله في إيقاع عقابه على من أبى الايمان موعد لا يتخلف ، ومع ما في الإمهال من الرحمة للعباد إلا أنه سول للنفوس الخبيثة التطاول في غيها ، والتمادي في ظلمها ، ولو شاء الله لعجل لهم العذاب في الدنيا ، وهنا تنبيه مهم أن الله عز في علاه من رحمته أنه دائما أعطى المهلة ، وفتح مجالا للأوبة ، وقبول التوبة ، وما نزل العذاب بأهل القرى من الأمم السالفة إلا بعد إصرارهم على كفرهم ، إقرأ إن شئت **﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[هود٣٦]**

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس ١٣]

وتداركت رحمة الله قريشا أن يحل بهم ما حل في الأمم السالفة من الاستئصال بإيمان أكثرهم ، ووجود رسول الله بين أظهرهم ، قال القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى :" أَلَا تَرَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً للعالمين)** فَكَانَتْ حَيَاتُهُ رَحْمَةً وَمَمَاتُهُ رَحْمَةً كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**(حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ)** وَكَمَا **قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً بِأُمَّةٍ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا)** وقَالَ السَّمَرْقَنْدِيُّ **(رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** يَعْنِي لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ، قِيلَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ: لِلْمُؤْمِنِ رَحْمَةً بِالْهِدَايَةِ، وَرَحْمَةً لِلْمُنَافِقِ بِالْأَمَانِ مِنَ الْقَتْلِ، وَرَحمةً لِلْكَافِرِ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ قَالَ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، إِذْ عُوفُوا مِمَّا أَصَابَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ" وفي حديث ابن شِهَابٍ ، **قَالَ : حَدَّثَنِي عُرْوَةُ ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَتْهُ، أَنَّهَا قَالَتْ**

لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ : " لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابن عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ ". فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ".

الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة؛ وهما: أبو قبيس والأحمر .

وبالرجوع الى الآيتين **((وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)))** يستفاد أن العذاب لا محالة ملحق بمن أعرض وأبى ماله عنه محيص ولا ملجأ ولا متحول ، إنهم معه على موعد ، فليس الإمهال لهم في الدنيا من دواعي الإهمال ، والله عز وجل وحده هو المؤقت له وقته ، والمؤذن بنزوله متى يشاء ، والغريب في الأمر أن الأمم التي كانت تصر على الكفر كانت تُنذَرُ من حلول العذاب بها كما حلَّ بغيرها من الأمم السالفة ممن أعرض وأبى ، ثم لا يكون من أمرها إلا الكفر والإعراض ومحاربة أنبياء الله ، حتى نزل بها عذاب الدنيا ولعذاب الأخرة أشدُّ وأَمَرُّ ، أعاذنا الله وإياكم إخواني من عذاب الله وشديد عقابه ، رب قنا عذابك إنا مسلمون . **قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ**

ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا (٦٢) قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا (٦٤) فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا (٦٥)﴾ [الكهف ٦٠-٦٥]

من أين بدأت قصة موسى عليه السلام مع الخضر ؟ للإجابة على هذا السؤال إليكم هذا الحديث الذي **ورد في صحيح البخاري عن ابن عَبَّاسٍ إذ يقول((حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ : أَنَا. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.))**

جاء في التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن ((: **"فعَتب الله عليه وآخَذَه به"** وأصل العتب المؤاخذة، يقال فيه: عتب عليه، إذا واخذه وذكره لَهُ والمؤاخذة والعتب في حق الله تعالى محال، فالعتب هنا عدم رضا قوله شرعًا وديناً ، وقد عتب الله عليه إذ لم يرد رد الملائكة **{لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} [البقرة: 32]**.وقيل جاء هذا؛ تنبيهًا لموسى وتعليمًا لمن بعده ودليلًا يقتدي به غيره في تزكية نفسه والعجب بحاله فيهلك، وإنما ألجئ موسى للخضر للتأديب لا للتعليم. قَالَ أُبَي: أُعجب موسى بعلمه فعاقبه الله بما لقي من الخضر))

ولنا هنا أن نقف على لطيفة ، وتدبرٍ لِسعة رحمة الله بعباده ، فإنه لما عتب الله على نبيه موسى عندما سئل عن أعلم الناس وأجاب بالقول : أنا ،

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، حتى سأل موسى ربه السبيل إليه ، حتى وصل إليه وصاحبه ، وحصل لموسى عليه السلام بصحبته

التأديب ومزيد العلم ، وما أجمل التأديب بالعلم والمعرفة ، لم يقرعه ربه عز وجل ولم يعاقبه وإنما أدبه بما زاده علما وتواضعا ، وليت موسى عليه السلام صبر أكثر لكان تحصل لنا مزيد علم مما آتاه الله لخاصة عباده مما يضيق فهمه على الناس ، ويستحيل طلبه إلا بهبة من أحكم الحاكمين ، إذ أن هذا العلم مبني على غيوب وحُجبٍ لا يكشفها لخاصته إلا الله ، **قال تعالى: ((عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا (٢٨)))** **[الجن ٢٥-٢٨]**

ولنعد لقوله تعالى **﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف ٦٠]**

بعد أن أوحى الله لنبيه موسى عليه السلام أن بمجمع البحرين عبدا لله أعلم منه سأل موسى عليه السلام كما **أورد البخاري بالقول ((أَيْ رَبِّ، وَمَنْ لِي بِهِ ؟ - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ : أَيْ رَبِّ، وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ - قَالَ : تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، حَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ - وَرُبَّمَا قَالَ : فَهُوَ ثَمَّهْ - وَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ))**

والمكتل هو القفة الكبيرة ، والحوت هو السمكة ، وعزم موسى على لقاء العبد حتى لو تطاول به الزمان ، ومضى به الدهر في طلب العلم ، بقوله لِفَتَاهُ يوشع بن نون : **﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾** أَيْ لَا أَزَالُ سَائِرًا حَتَّى أَبْلُغَ هَذَا الْمَكَانَ الذي فيه مجمع البحرين وعن ﴿ ابن عباس، قوله: **﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾** قال: دهرا ﴾ وهذا

يؤكد مدى حرص موسى عليه السلام على الاستزادة من العلم ، والرحلة وتحمل مشاقها في طلبه ، وأما الحديث عن مكان مجمع البحرين فيقول شهيد الاسلام السيد قطب رحمه الله : ((والأرجح - و الله أعلم ـ أنه مجمع البحرين : بحر الروم و بحر القلزم . أي البحر الأبيض و البحر الأحمر . . و مجمعهما مكان التقائهما في منطقة

البحيرات المرة و بحيرة التمساح ، أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر ، فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر))والله أعلم

ومن لطيف القول أن موسى عليه السلام وفتاه بلغا المكان في مجمع البحرين ، وظهرت العلامة لفتى موسى عليه السلام وموسى نائم ،والعلامة هي فقد الحوت ، كما ورد في حديث البخاري الطويل ((حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، { فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا }. فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ - فَقَالَ : هَكَذَا مِثْلَ الطَّاقِ - فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا. حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ { قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا }. وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ. قَالَ لَهُ فَتَاهُ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا. قَالَ لَهُ مُوسَى : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ؟ قَالَ : أَنَا مُوسَى. قَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي { مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا }. واللطيفة التي نود ذكرها أن من أدب العلم أن يؤتى إليه ، ولا يأتي لشرفه الى أحد .

وتظهر العلامة لفتى موسى عليه السلام يوشع بن نون فينسى إخبار موسى بها حال قيامه ، وينسى موسى عليه السلام تفقد أمر الحوت ، والسؤال عنه ، فيتمان السير حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه بعدما جَاوَزَا المكان المطلوب **((ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا (٦٢)))** وما وجدا التعب إلا بعدما جاوزا المكان المقرر ، تتوقد ذاكرة يوشع بن نون لينبئ موسى عليه السلام بخبر الحوت

، قَائلاً :((**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلَهُمَا عَجَبًا.**)) وقَالَ قَتَادَةُ: وَقَرَأَ ابن مَسْعُودٍ: ["وَمَا أَنْسَانِيهِ أَنْ أَذْكُرَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ] . وهنا لطيفة أخرى أن يوشع بن نون لصفاء قلبه ، وصحة همته يرى أن ما يحول بين المرءِ وطلبه للخير إنما هو الشيطان ،وفي الحديث ((**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابن آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ؛ فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "ثُمَّ قَرَأَ:{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ }.**هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي الْأَحْوَصِ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْأَحْوَصِ.)) رواه الترمذي والحديث: صحيح ، (**لَمَّة**) بفتح اللام وشدة الميم من الإلمام ومعناه النزول والقرب والإصابة ، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر كالكفر والفسق والظلم (**وتكذيب بالحق**) أي في حق الله أو حق الخلق أو بالأمر الثابت كالتوحيد والنبوة والبعث والقيامة والنار والجنة (**وأما لمة الملك فإيعاد بالخير**) كالصلاة والصوم (**وتصديق بالحق**) ككتب الله ورسوله.

وللشيطان حِيَل كثيرة على ابن آدم منها الإغفال والنسيان ، أعاذنا الله وإياكم من الشيطان الرجيم .

ويعود موسى عليه السلام ويوشع بن نون أدراجهما قصصا يتتبعان أثر سيرهما ، ليجدا الخضر عليه السلام ،قال القرطبي في " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا**﴾ الْعَبْدُ هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ، وَبِمُقْتَضَى الْأَحَادِيثِ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ**

عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ) وحَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ له موافقة في صحيح البخاري ."

الفروة: الأرض التي لا نبات فيها. وقيل: النبات اليابس.

وقال القرطبي رحمه الله ((وَالْخَضِرُ نَبِيٌّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقِيلَ: هُوَ عَبْدٌ صَالِحٌ غَيْرُ نَبِيٍّ، وَالْآيَةُ تَشْهَدُ بِنُبُوَّتِهِ لِأَنَّ بَوَاطِنَ أَفْعَالِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِوَحْيٍ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَنْ فَوْقَهُ، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ النَّبِيِّ مَنْ ليس بنبي. وَقِيلَ: كَانَ مَلَكًا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَأْخُذَ عَنْهُ مِمَّا حَمَلَهُ مِنْ عِلْمِ الْبَاطِنِ. وَالْأَوَّلُ الصَّحِيحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.))

وقال الشيخ عبد الحميد كشك في تفسيره في رحاب التفسير في الخَضر : ﴿(بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) : لقب لصاحب موسي ، و اسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) ابن ملكات والأكثرون على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة :

أ- قوله تعالى : **((آتيناه رحمة من عندنا))**: والرحمة : النبوة بدليل قوله : **((أهم يَقِسِّمون رحمة ربك))** .الآية ٣٢ الزخرف

ب- قوله تعالى : **((وعلمناه من لدنا علما))**: وهذا يقتضي انه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

ج- أنه قال له موسي **((هل أتبعك على أن تعلمن))** : و النبي لا يتعلم من غير النبي.

د- أنه قال: **((ومافعلته عن أمرى))** : أي بل قد فعلته بوحي من الله وهذا دليل النبوة. ﴾ انتهى كلامه رحمه الله.

وقبل أن ندخل في الآية التي بعدها إن شاء الله أحب أن أشير الى بعض الدروس من هذه الآيات :

١- إن من تمام الأدب مع الله تعالى أن يرد الإنسان كل نعمة هو فيها إليه ، معترفا بفضله عليه ، لا إلى نفسه ، وموسى هنا عليه السلام أجاب بمقتضى علمه متعجلاً ، ناسيا أن يرد الفضل في هذا العلم الى الله ، فأدبه ربه مع أنه النبي الذي لاقى في دعوته من الأذى والعنت من فرعون وبني إسرائيل الكثير ، أفلا يسعنا نحن دائما رد كل نعمة وفضلٍ الى الله عز وجل ؟ قال تعالى :

((وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة ٢٣١]))

٢- يجب أن يكون للمرء المسلم في طلب مرضاة الله عزيمة لا تلين ، وإصرار لا ينقطع ، ومن أشرف المطلوبات العلم الموصل الى مرضاة الله عز وجل ، لهذا تحمل الأنبياء والصالحون في سبيله كل المشاق ، فالعلم لا ينال براحة البدن .

٣- طلبَ العلمَ نبي الله موسى ونال في سبيله المشقة وفي فَضْلِ الْعِلْمِ، يقول اللَّهِ تَعَالَى : **{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }.** وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ مخاطبا نبينا عليه الصلاة والسلام : **{ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }** أفلا يسعنا طلب العلم حتى ننال الرفعة والدرجات عند الله ، وكان من أهل العلم من يقول : مع المحبرة الى المقبرة .

٤- إن العلم يستوجب الطلب ، فلا بد فيه من حركة قد تكون بالرحلة إليه والتزود لها ، وطلبه في مظانه ، وتوقع الصعاب في تحصيله ، وتوديع الآمال بالأعمال لتوقع النوال :

ولله در القائل :

ايطيب لي زمنى ولم اجرى به في حلبة العلم الشريف جوادي

وقول القائل:

أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي؟

قوله تعالى: ((فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨))

هذا العبد كما مر معنا في الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنه هو الخضر ، وقد أوردنا سبب تسميته بذلك ، وسنورد هنا بعض الأمور التي تم الخوض فيها بشأن الخضر غير الجدل في كونه نبياً أم ولياً ، لأننا ذكرنا هذا سابقا فليرجع إليه ، حديثنا سيكون عن تساؤلات دارت حول وجوده الى الآن أم لا ، وحول مكنون علمه من قوله تعالى **((وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا))** أما عن وجوده الى الآن ففيه خلاف بين أهل العلم ، والقول الراجح في هذا أنه ميت ، ومال ابن الصلاح إلى بقائه وذكروا في ذلك حكايات وآثارا عن السلف وغيرهم وجاء في ذكره في بعض الأحاديث -أي بقاؤه حيا- ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف ورجح آخرون من المحدثين خلاف ذلك وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حيا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثا إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: "لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي"، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل))

وقبل الحديث عن علمه نتأمل قوله تعالى: **((ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا))** وفي تأويل الرحمة هنا لإهل التفسير ثلاثة أقوال كما أورد ابن الجوزي " أَحَدُها: أنَّها النُّبُوَّةُ، قالَهُ مُقاتِلٌ. والثّانِي: الرِّقَّةُ والحُنُوُّ عَلى مَن يَسْتَحِقُّهُ، ذَكَرَهُ ابن الأنْبارِيِّ. والثّالِثُ: النِّعْمَةُ، قالَهُ أبُو سُلَيْمانَ الدِّمَشْقِيُّ." ومقتضى التسمية بإن النبوة رحمة والرقة لعباد الله والرأفة بهم رحمة ، والنعمة التي بها قوام المرء والآخرين رحمه ، فمع ما

أوتي هذا العبد من علم فإنه أوتي معه رحمة ، ولئن كانت أعماله في ظاهرها شدة إلا أنها بجوهرها رحمة قل من يعلمها ، فسبحان الله في آياته ، وتصريف شؤون عباده ، اللهم اختر لنا فإنا لا نحسن الاختيار ، ودبر لنا فإنا لا نحسن التدبير .

وأما عن علمه في قوله تعالى **((وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا))** "قالَ ابن عَبّاسٍ: أعْطاهُ عِلْمًا مِن عِلْمِ الغَيْبِ." و،"قال ابن عَطِيَّةَ: كَانَ عِلْمُ الْخَضِرِ عِلْمُ مَعْرِفَةِ بَوَاطِنَ قَدْ أُوحِيَتْ إِلَيْهِ، لَا تُعْطِي ظَوَاهِرَ الْأَحْكَامِ أَفْعَالَهُ بِحَسَبِهَا، وَكَانَ عِلْمُ مُوسَى عِلْمُ الْأَحْكَامِ وَالْفُتْيَا بِظَاهِرِ أَقْوَالِ الناس وأفعالهم."

فعلم الخضر عليه السلام علم مخصوص من علوم الله التي تَفضَّل الله بها عليه ، وعلوم الله لا تعد ولا تحصى يكفيك أن تقرأ قول الله تعالى في آخر سورة الكهف :**((قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا [الكهف ١٠٩]))** وقول الخضر لموسى عندما "جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ : يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ"

وأما خروج البعض من خلال هذه الآيات بعلم أطلقوا عليه العلم اللدني وأنه يكتسب بالخلوة والانقطاع الى الله دون تعلم فلا أصل له ولا فصل والتفسير للآية كما أوردنا وسنورد إن شاء الله ، وما أوتيه الخضر من العلم إنما هو من الله باعتباره نبياً من أنبياء الله ، وعلوم الأنبياء من لدن الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : **((كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا (٩٩)طه))**

ومعنى من لَّدُنَّا : من عندنا وقد وردت في عدة مواضع في كتاب الله ، قال تعالى : **((يَـٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَـٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا (١٢) وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا (١٣) [مريم ١٢-١٣]))**

وقال تعالى : ((وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ)) [القصص ٥٧]

ويكفيك أن تعلم أن اكتساب العلم لسائر الخلق بعد الأنبياء إنما يكون بالتعلم ، أما الأنبياء فيكون بالوحي والإلهام ، وتعلم نبي من نبي .

وأما ما يورده بعض المتصوفة من حديث :**((من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم))** ويرفعونه الى النبي صلى الله عليه وسلم فحديث ضعيف لا يُعتد به "يقول الشيخ أبو نعيم رحمه الله ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه و سلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل" ، وللفضيل بن عياض رحمه الله تصحيحا جليلاً وهو قوله : «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ اسْتَغْنَى عَمَّا لا يَعْلَمُ، وَمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِمَا لا يَعْلَم" وقوله "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ اسْتَغْنَى عَمَّا لا يَعْلَمُ" إشارة إلى أن قليل العلم مع العمل خير من كثيره دون العمل ، ويحمل قوله "وفقه الله لما لا يعلم" على الفهم أو التوفيق الى تعلم الجديد .

وأما الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما **أورده البخاري في صحيحه من قوله " صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَهِّمْهُ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ".** ودقة الفهم مع وجود أدواته هبة من الله تعالى وإن سمي علما ، أما العلم بالشرائع والأحكام ومعرفة ما يرضي الله مما يسخطه فلا يكون إلا بالتعلم ، وبهذا تحصَّل العلم للصحابة والتابعين ومن تبعهم من العلماء المخلصين ، فليعلم .

يقول الطبري رحمه الله:((يقول تعالى ذكره: قال موسى للعالم: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي**﴾ من العلم الذي علمك الله ما هو رشاد إلى الحقّ، ودليل على هدى.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

يقول تعالى ذكره: قال العالم: إنك لن تطيق الصبر معي، وذلك أني أعمل بباطن علم علَّمنيه الله، ولا علم لك إلا بظاهر من الأمور، فلا تصبر على ما ترى من الأفعال، كما ذكرنا من الخبر عن ابن عباس قَبلُ من أنه كان رجلا يعمل على الغيب قد علم ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: **﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾**

يقول عزّ ذكره مخبرا عن قول العالم لموسى: وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب خبرا يقول علما، قال: **﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾** على ما أرى منك وإن كان خلافا لما هو عندي صواب **﴿**وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾** يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإن لم يكن موافقا هواي))

وبالعودة إلى حديث إن عباس الذي رواه البخاري نجد إتفاقا مع ما ذكره الطبري بقول الخضر لموسى :**((قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ))** إذن فالحديث هنا على علم مخصوص كما أورد ذلك ابن حجر رحمه الله في الفتح بالقول :" والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص، لقوله بعد ذلك: " إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه " ولنا تحذير من قول بعض المتصوفة بإن الولي أفضل من النبي ،

ويستشهدون على ذلك بقصة موسى مع الخضر ، ونقصِ علم موسى عليه السلام دون علم الخضر ، ولابن حجر رحمه الله ردا مفحما لهم بالقول : " فلا نقصَ به إذا كان الخضر أعلم منه إن قلنا: إنه نبي مرسل، أو أعلم منه في أمر مخصوص إن قلنا: إنه نبي أو ولي، وينحل بهذا التقرير إشكالات كثيرة، ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: **{وما فعلته عن أمري}** وينبغي اعتقاد كونه نبيا لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي، حاشا وكلا."

ولتفصيل قول ابن حجر في الرد عليهم نقول : الخضر نبي بقول الله تعالى على لسانه لموسى {وما فعلته عن أمري} ، وقد أوردنا فيما مضى أدلة أخرى تشير إلى أنه نبي ، فلا نقص في علم النبي إذا تعلم من نبي مثله ، وحتى إن قيل إنه ولي وليس بنبي فيرد عليهم بإن أعلميته بإمر مخصوص لا تنقص من قدر علم موسى عليه السلام الذي آتاه الله الكتاب ، قال تعالى: **((وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون (٥٣)البقرة)) وقال تعالى :((ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... الآية (٨٧) البقرة))** ، ثم إن الله عز وجل أجرى من الآيات لموسى ما هو أعجب من الآيات مع الخضر منها تحول العصى الى أفعى ، وشق البحر معه لبني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده فيه ، وإحياء المقتول منهم بقطعة لحم من البقرة المذبوحة إذ ضرب بها ، وغيرها من الآيات.

نكمل إن شاء الله ، أعلم الخضرُ موسى عليهما السلام أنه لن يستطيع الصبر معه ، وعلل له ذلك بالقول **((وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبرا))** يقول ابن كثير في تفسيره " فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْذُورٌ فِيهِ، ولكنْ مَا اطَّلَعَتْ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اطَّلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ."

دعونا نتساءل لماذا كان موسى متعجلا كما سيأتي معنا لاحقاً ولم يطق صبرا مع العلم أن الله أرشده إليه وأخبره أنه أكثر علماً ، وقد استأذن موسى الخضر بالقول هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟

الجواب كما أورد القرطبي رحمه الله بالقول "وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يُقِرُّونَ عَلَى منكر، لا يَجُوزُ لَهُمُ التَّقْرِيرُ أَيْ لَا يَسَعُكَ السُّكُوتُ جَرْيًا عَلَى عَادَتِكَ وَحُكْمِكَ "

والحقيقة أن موسى عليه السلام لم يبلغ من العلم مبلغا يمكنه من تفسير ما مر به مع الخضر من أحداث ظاهرها منكر يستوجب الإنكار ، مع ما اعتاده الأنبياء من المبادرة الى إنكار المنكرات بحزم .

{قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا (٧٠)فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا (٧١) قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسَۢا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا (٧٤) قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا (٧٨)} [الكهف

قال الطبري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**﴾" على ما أرى منك وإن كان خلافا لما هو عندي صواب ﴿**وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإن لم يكن موافقا هواي."

وهنا فائدة عظيمة لكل طالب علم في أن يوطن نفسه في أخذ العلوم على الصبر ، ومنها أن يصبر على أستاذه، ويحتمل شدَّته إن كان شديداً، وغضبَه إن كان غضوباً، ويحترم صمته فيما لا يُحب الكلام فيه.

وهنا نجد أن موسى عليه السلام أوكل أمر تحمله الصبر إلى الله ، وجعل أمر صبره مرهوناُ بمشيئة الله تعالى ، وهذا ما ينبغي في كل أمرٍ ذي بال -أن يعلق الإنسان أمر حصوله على الله عز وجل ، وأن يرضى بعد ذلك بما يأتيه منه ، مسقطاً تدبير نفسه إلى تدبير الله الحكيم العليم ، يقول الماوردي رحمه الله في تفسيره "فَوَعَدَ بِالصَّبْرِ والطّاعَةِ ثُمَّ اسْتَثْنى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعالى حَذَرًا مِمّا يَلِي فَأطاعَ ولَمْ يَصْبِرْ."

وكذلك فإن موسى وهو نبي ذو علم وفطنة يعلم أن من سنن العلم ، وسبله طاعة المعلم ، فبادره بالقول :**(ولا أعصي لك أمرا)** وبهذا ننوه إلى ثلاثة أمور في غاية الأهمية في طلب العلم:

أولاها : الاستعانة بالله ورجاء توفيقه ، والعلم بإن كل نجاح وتقدم إنما هو بفضل الله عليه .

ثانيها : الصبر لإن العملية التعليمية بطبيعتها بحاجة إلى مراحل من الدرس والمذاكرة والانضباط ، لهذا لا يمكن لطالب العلم أن يأمن على نفسه من الانقطاع إلا إذا تسلح بالصبر .

ثالثها : طاعة المعلم لإن المعلم الحاذق يكون ذا خبرة لما يُقَدم وما يُؤخَر ، فهو ذو مراس بالعلم وطرق تحصيله يجتاز بالطالب العقبات والمفاوز كي يصل به ، وإلا تأخر الطالب بفوات من يهديه السبيل ، وانقطعت حيله في طلب العلم .

وبعد أن وعد موسى عليه السلام بالصبر والطاعة شَارَطَهُ الْخَضِرُ ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ**﴾ أَيْ: ابْتِدَاءً ﴿**حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ أَيْ: حَتَّى أَبْدَأَكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي.

يقول القرطبي رحمه الله : " وَهَذَا مِنْ الْخَضِرِ تَأْدِيبٌ وَإِرْشَادٌ لِمَا يَقْتَضِي دَوَامَ الصُّحْبَةِ، فَلَوْ صَبَرَ وَدَأَبَ لَرَأَى الْعَجَبَ، لَكِنَّهُ أَكْثَرَ مِنْ الِاعْتِرَاضِ فَتَعَيَّنَ الْفِرَاقُ وَالْإِعْرَاضُ"

وقد فسرنا سابقاً عدم إطاقة موسى عليه السلام الصبر مع الخضر ، ولابن عاشور في التحرير والتنوير كلام في غاية الروعة يقول فيه " فالمُتَعَلِّمُ الَّذِي لَهُ نَصِيبٌ مِنَ العِلْمِ، وجاءَ طالِبًا الكَمالَ في عُلُومِهِ إذا بَدا لَهُ مِن عُلُومِ أُسْتاذِهِ ما يُخالِفُ ما تَقَرَّرَ في عِلْمِهِ يُبادِرُ إلى الِاعْتِراضِ والمُنازَعَةِ، وذَلِكَ قَدْ يُثِيرُ النَّفْرَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ أُسْتاذِهِ، فَلِتَجَنُّبِ ذَلِكَ خَشِيَ الخَضِرُ أنْ يَلْقى مِن مُوسى هَذِهِ المُعامَلَةَ فَقالَ لَهُ ﴿**إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾، فَأكَّدَ لَهُ مُوسى أنَّهُ يَصْبِرُ ويُطِيعُ أمْرَهُ إذا أمَرَهُ، والتِزامُ مُوسى ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلى ثِقَتِهِ بِعِصْمَةِ مَتْبُوعِهِ؛ لِأنَّ اللَّهَ أخْبَرَهُ بِأنَّهُ آتاهُ عِلْمًا."

وقال ابن حيان رحمه الله في البحر المحيط في قوله "﴿**قالَ فَإنِ اتَّبَعْتَنِي**﴾، أيْ: إذا رَأيْتَ مِنِّي شَيْئًا خَفِيَ عَلَيْكَ وجْهُ صِحَّتِهِ فَأنْكَرْتَ في نَفْسِكَ فَلا تُفاتِحْنِي بِالسُّؤالِ حَتّى أكُونَ أنا الفاتِحَ عَلَيْكَ، وهَذا مِن أدَبِ المُتَعَلِّمِ مَعَ العالِمِ المَتْبُوعِ."

يقول جل ذكره ((**فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١)**)) (إِمْراً) مَعْنَاهُ عَجَبًا، قَالَهُ الْقُتَبِيُّ، وَقِيلَ: مُنْكَرًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْإِمْرُ الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَة .

جاء في صحيح البخاري قوله " فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُفَحَمَلُوهُمَا

بِغَيْرِ نَوْلٍ(أي بغير أجر) ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ : يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ؟ قَالَ : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا "

ثم كانت الثانيه قال تعالى : ﴿**فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦)**﴾ جاء في البخاري قوله "**فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ هَكَذَا - وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئًا - فَقَالَ لَهُ مُوسَى : { أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا }{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } { قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا }**

وقال الرازي رحمه الله في قوله تعالى : **﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا (٧٦) }** : " وهَذا عَيْنُ ما ذَكَرَهُ في المَسْألَةِ الأُولى إلّا أنَّهُ زادَ هَهُنا لَفْظَةَ "لَكَ"؛ لِأنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ تُؤَكِّدُ التَّوْبِيخَ، فَعِنْدَ هَذا قالَ مُوسى: ﴿**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي**﴾ مَعَ العِلْمِ بِشِدَّةِ حِرْصِهِ عَلى مُصاحَبَتِهِ وهَذا كَلامُ نادِمٍ شَدِيدِ النَّدامَةِ ثُمَّ قالَ: ﴿**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا**﴾ والمُرادُ مِنهُ أنَّهُ يَمْدَحُهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِن حَيْثُ احْتَمَلَهُ مَرَّتَيْنِ أوَّلًا وثانِيًا، مَعَ قُرْبِ المُدَّةِ"

وفي الحديث عند البخاري :" قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا ".

وكانت بعد ذلك الثالثة التي قطعت المصاحبة

كما جاء عند **البخاري " فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " وعند مسلم "قال الخضر بيده هكذا فأقامه"**

قال تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82) ﴾

ذكرنا في فيما مضى السبب لعدم قدرة موسى عليه السلام الصبر مع الخضر عليه السلام ، وهنا نتعرض لبيان هذه الأمور التي غاب بيانها على موسى عليه السلام من خرق للسفينة وقتل للغلام وبناء للجدار دون أجر ، يقول الطبري رحمه الله : " أما فعلي ما فعلت بالسفينة، فلأنها كانت لقوم مساكين **(يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)** بالخرق الذي خرقتها."

" وقوله: **﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾**

وكان أمامهم وقُدّامهم ملك.

كما:-

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: ﴿**مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ**﴾ وهي بين أيديهم."

وكان ذاك الملك **{يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}** لربما يعترض قائل فيقول : ما الفائدة من عيب السفينة بالخرق والملك يأخذ كل سفينة غصباً ، سواء كانت صحيحة أم معيبه ؟

يجيب الطبري رحمه الله على هذا التساؤل بالقول :" قوله: ﴿**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ فأبان بذلك أنه إنما عابها، لأن المعيبة منها لا يعرض لها، فاكتفى بذلك من أن يقال: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا، على أن ذلك في بعض القراءات كذلك.

* حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، قال: هي في حرف ابن مسعود: ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا**﴾ ".

ومتى تركها لهم الملك فإن بإمكانهم إصلاحها والاستمرار بانتفاع المساكين بها ، ولك أن تتأمل رحمة الله بعباده الضعفاء كيف يدفع عنهم أذى الطغاة ، بعمل بسيط ، وإن كان فعل الخرق صدر من الخضر إلا أنه بأمر من الله تعالى لقوله **{ وما فعلته عن أمري}** ، ثم إن وقوع بعض الضرر فيما للإنسان قوامه خير من فواته وفقده كله ، هذا فضلاً عن أنهم مساكين لا قوة لهم في مدافعة الملك الظالم ، الذي لا يرحم مسكيناً، ولا ينظر له بعين الرحمة ، فسبحان الله ملك الملوك في نظرته بعين الرحمة واللطف بعباده المساكين .

وتتدارك رحمة الله بأبوين مؤمنين بقتل غلام لهما يكون كافراً لو قدر له العيش ، وفي هذا أعظم الأذى للوالدين المؤمنين ، بقوله تعالى :**{ وأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ**

مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) }

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: معنى قوله: ﴿**خَشِينا**﴾ في هذا الموضع: كرهنا، لأن الله لا يخشى.

وقد عثرت على كلام نفيس ، "عن قتادة، أنه ذكر الغلام الذي قتله الخضر، فقال: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب."

وكثيرا ما أدعو بهذا الدعاء (اللهم اختر لنا فإنا لا نحسن الاختيار ، ودبر لنا فإنا لا نحسن التدبير)

ويبدل الله الأبوين المؤمنين ويخلف عليهما على قول بعض المفسرين بجارية (أنثى) وقيل بغلام مسلم ﴿**خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً**﴾

يقول: خيرا من الغلام الذي قتله صلاحا ودينا.

﴿**وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾ : أبرّ بوالديه.

فتأمل تدبير الله لعباده الذين أذعنوا إليه بالإيمان ، وصفت أنفسهم له كيف يدبر لهم في عالم الغيب ما يصلح لهم حياتهم ، بدفع الأذى والكدر عنهم ، وكيف يؤلمهم ألما خفيفا ليزيل عنهم شراً مستطيرا ، وبعد ذلك يفيض عليهم من كرمه ما تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم في الدنيا والآخرة ، سبحانه جل في علاه وتقدست أسماؤه

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82) ﴾

وتحيط رحمة الله بغلامين يتيمين كان أبوهما صالحا بإن سخر لهما الخضر عليه السلام ليقيم الجدار الذي يخبئ كنزا لهما يأخذانه عندما يبلغا أشدهما ، وهذه رسالة إلى كل والد يحب بنيه إذا ما أراد لهم صلاح الحال من بعده ، وهذا والله يذكرني بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما كان على فراش الموت فيما رواه" ابن عبد ربه، وهو أن مسلمة بن عبد الملك، دخل على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله.

فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال:

الحمد لله، أبالله تخوفني يا مسلمة؟. أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله، فجعل الله له من أمره يسرا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه، ادعوا لي بني. فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه، حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال:

بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم. يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بني، ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا النار. قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم.

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر "

وأخيراً نقول :

لو تأمل المؤمن حاله فيما يصيبه في الدنيا من الضرر لأيقن أن خلف هذا رحمة من الله ، يصيبه الله بها بألطاف العناية ، ويدفع عنه بها الرزايا ، وذلك أن أمر المؤمن فيما يصيبه من الله خير كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم : **((عَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))** فسبحان الله في تدبير عباده ، ورحمته بهم .

قال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا(87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90)كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95)آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98)} الكهف

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ [الكهف ٨٣]

قال البيضاوي في قوله تعالى :

"**{وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ}** يَعْنِي إسْكَنْدَرَ الرُّومِيَّ مَلِكَ فارِسَ والرُّومِ. وقِيلَ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ ولِذَلِكَ سُمِّيَ ذا القَرْنَيْنِ، أوْ لِأنَّهُ طافَ قَرْنَيِ الدُّنْيا شَرْقَها وغَرْبَها، وقِيلَ لِأنَّهُ انْقَرَضَ في أيّامِهِ قَرْنانِ مِنَ النّاسِ، وقِيلَ كانَ لَهُ قَرْنانِ أيْ ضَفِيرَتانِ، وقِيلَ كانَ لِتاجِهِ قَرْنانِ. ويَحْتَمِلُ أنَّهُ لُقِّبَ بِذَلِكَ لِشَجاعَتِهِ كَما يُقالُ الكَبْشُ لِلشُّجاعِ كَأنَّهُ يَنْطَحُ أقْرانَهُ. واخْتُلِفَ في نُبُوَّتِهِ مَعَ الِاتِّفاقِ عَلى إيمانِهِ وصَلاحِهِ، والسّائِلُونَ هُمُ اليَهُودُ سَألُوهُ امْتِحانًا أوْ مُشْرِكُو مَكَّةَ. **﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكم مِنهُ ذِكْرًا﴾** خِطابٌ لِلسّائِلِينَ والهاءُ لِذِي القَرْنَيْنِ. وقِيلَ لِلَّهِ."

وقالَ وهْبُ بْنُ مُنَبِّهَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأنَّ جَنَبَتَيْ رَأسِهِ كانَتا مِن نُحاسٍ.

وقال النسفي " قِيلَ مَلَكَها مُؤْمِنانِ ذُو القَرْنَيْنِ وسُلَيْمانُ وكافِرانِ نَمْرُودُ وبُخْتُنَصَّرُ وكانَ بَعْدَ نَمْرُودَ وقِيلَ كانَ عَبْدًا صالِحًا مَلَّكَهُ اللهُ الأرْضَ وأعْطاهُ العِلْمَ والحِكْمَةَ "

{قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكم مِنهُ ذِكْرًا} قال البيضاوي: "خِطابٌ لِلسّائِلِينَ والهاءُ لِذِي القَرْنَيْنِ. وقِيلَ لِلَّهِ." يقصد بالهاء الموجودة في (منه)

وقال رحمه الله في قوله :"**{إنّا مَكَّنّا لَهُ في الأرْضِ}** أيْ مَكَّنا لَهُ أمْرَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيها كَيْفَ شاءَ فَحُذِفَ المَفْعُولُ. **﴿وَآتَيْناهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾** أرادَهُ وتَوَجَّهَ إلَيْهِ. **﴿سَبَبًا﴾** وصِلَةً تُوَصِّلُهُ إلَيْهِ مِنَ العِلْمِ والقُدْرَةِ والآلَةِ"

{فَأتْبَعَ سَبَبًا} أيْ فَأرادَ بُلُوغَ المَغْرِبِ فَأتْبَعَ سَبَبًا يُوصِلُهُ إلَيْهِ.

يقول الطبري رحمه الله في قوله :" **{حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) }** يقول تعالى ذكره: **﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ﴾** ذو القرنين **﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا**

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ، فاختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراء المدينة والبصرة **﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾** بمعنى: أنها تغرب في عين ماء ذات حمأة، وقرأته جماعة من قراء المدينة، وعامَّة قرّاء الكوفة (فِي عَيْنٍ حامِيَةٍ (يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة.

واختلف أهل التأويل في تأويلهم ذلك على نحو اختلاف القرّاء في قراءته."

وفي قوله تعالى :

"{ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} قَالَ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو نَصْرٍ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَهُوَ وَحْيٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا فَهُوَ إِلْهَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ."

والرأي الذي أميل إليه أنه نبي لهذا الخطاب ، فهو أشبه بخطاب الله لأنبيائه كقوله : **{ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)} نوح** ، وكقوله : **{وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ} [البقرة ٣٥]**

وفي قوله تعالى : **{ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا }** ، أشبه معناه قول رسولنا صلى الله عليه وسلم فيما **رواه مسلم : (أُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)"**

والله عز وجل وهبه من الأسباب ما يصل به الى هؤلاء ودعوتهم ، وتذكيرهم بعذاب النار ، وإيقاع العقاب بمن جاوز الحد منهم بالظلم ، وإلا فما العبرة من سيره

هذه المسافات الشاسعة ، وتذليل العقبات له ، إلا أنه مأمور بدعوتهم الى الايمان بالله وعبادته .

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا (٩٠) كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا (٩١)﴾ [الكهف ٨٩-٩١]

ثم بلغ منزلا عند مطلع الشمس ، كالذي بلغه عند مغرب الشمس ، قال الطبري رحمه الله : " ووجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب"

وعن قتادة، في قوله **﴿تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾** قال: يقال: هم الزنج .....

"وقوله **﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾**

يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علما لا يخفى علينا ما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم شيء."

قوله :**{ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا (٩٣) قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا (٩٤)} [الكهف ٩٢-٩٤]**

ثم بلغ منزلا بين جبلين كما قال قتادة، ووجد دونهما قوماً ، لا يكادون يفهمون كلاماً إلا كلامهم ، **{ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا (٩٤)}** ويأجوج ومأجوج ، وهم أمتان من وراء السد ، مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ، وجاء عند الطبري :" عن الوليد

بن مسلم، قال: سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول في قوله ﴿**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ قال: كانوا يأكلون الناس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن يأجوج ومأجوح سيفسدون في الأرض، لا أنهم كانوا يومئذ يفسدون."

وقوله ﴿**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**﴾ خرجا أي أجراً ﴿**عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**﴾ يقول: قالوا له: هل نجعل لك خراجا حتى أن تجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوح حاجزا يحجز بيننا وبينهم، ويمنعهم من الخروج إلينا. وهو السدّ.

﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾ **[الكهف ٩٥]**

قال الطبري رحمه الله :

"القول في تأويل **قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴾**

يقول تعالى ذكره: قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقوّاني عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلةٍ وصناعٍ يُحسنون البناء والعمل.....وقوله: ﴿**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾

يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما. والردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع منه وأشدّ، يقال منه: قد ردم فلان موضع كذا يَردِمه رَدْما ورُدَاما ويقال أيضا: رَدَّم ثوبه يردمه، وهو ثوب مُرَدّم: إذا كان كثير الرقاع، ومنه قول عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ"

قال الشوكاني "**﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾** أيْ: أعْطُوْنِي وناوِلُونِي، و**(زُبَرَ الحَدِيدِ)** جَمْعُ زُبْرَةٍ، وهي القِطْعَةُ. قالَ الخَلِيلُ: الزُّبْرَةُ مِنَ الحَدِيدِ القِطْعَةُ الضَّخْمَةُ.....**﴿حَتَّى إذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾** والصَّدَفانِ: جانِبا الجَبَلِ.

قالَ الأزْهَرِيُّ: يُقالُ لِجانِبَيِ الجَبَلِ صَدَفانِ إذا تَحاذَيا لِتَصادُفِهِما أيْ: تَلاقِيهِما."

وقال الطبري :" وقوله **(قَالَ انْفُخُوا)** يقول عزّ ذكره، قال للفعلة: انفخوا النار على هذه الزبر من الحديد.

وقوله: **﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾**

وفي الكلام متروك، وهو فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا **﴿**قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**﴾** فاختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة، وبعض أهل الكوفـة **﴿قَالَ آتُونِي﴾** بمد الألف من **﴿آتُونِي﴾** بمعنى: أعطوني قطرا أفرغ عليه....وقوله: **﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾**

يقول: أصبّ عليه قِطرا، والقِطْر: النحاس.....وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يقول: القِطر: الحديد المذاب.....عن ابن جريج **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾** قال: يعلوه **﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** أي ينقبوه من أسفله.....**﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف ٩٨]**

القول في تأويل **قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾**

يقول عزّ ذكره: فلما رأى ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا ما بنى من الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته وسويته حاجزا بين هذه الأمة، ومن دون الردم رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتى بنيته وسوّيته ليكفّ بذلك غائلة هذه الأمة عنهم.....وقوله **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾**

يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم. جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء: مستوية الظهر لا سنام لها."

وقال القرطبي: **قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾** أَيْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: وَقْتُ خُرُوجِهِمْ."

وفي خروج يأجوج ومأجوج قوله تعالى من سورة الأنبياء : **{ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ (٩٦) وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧)﴾ [الأنبياء٩٦-٩٧]**

وذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري قوله :" ومن طريق أبي هريرة - رفعه -: " ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة "، وفي سنده ضعف، ومن رواية سعيد بن بشير عن قتادة قال: " يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين وكانت منهم قبيلة غائبة في الغزو وهم الأتراك، فبقوا دون السد "، وأخرج ابن مردويه من طريق السدي قال: الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فبنى السد فبقوا خارجا. "

وقد ذكرت في خروج يأجوج ومأجوج أحاديث صحيحة منها : **"عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَيُحَجَّنَّ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ ".رواه البخاري**

عَنْ زَيْنَبَ بْنَةِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا، يَقُولُ : " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ

مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ". وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بْنَةُ جَحْشٍ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : " نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ ".رواه البخاري

وفي حديث طويل رواه مسلم في صحيحه عن نواس بن سمعان قوله (....وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، { وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ (النغف: جمع نغفة؛ وهو دُودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم.) فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ (رائحتهم الكريهة) وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ، حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ (أي كالمرآة)...).

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وعرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104)

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)}

الكهف

أورد الطبري في تفسيره " عن شيخ من بني فزارة، في قوله: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾ قال: إذا ماج الجنّ والإنس، قال إبليس: فأنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظعن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب، فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يصعد يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض، فيجد الملائكة قطعوا الأرض، فيقول: ما من مَحِيص، فبينا هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذرّيته، فبينما هم عليه، إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازنا من خُزّان النار، قال: يا إبليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك، ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه، فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار، فيتلكأ عليه، فيقول به وبذرّيته بجناحيه، فيقذفهم في النار، فَتزفر النار زفرة فلا يبقى مَلَك مقرّب، ولا نبيّ مرسل إلا جثى لركبتيه."

قوله تعالى: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)}

جاء في تفسير الطبري قوله " واختلف في معنى "الصور" في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان: إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كل مَيْتٍ. واعتلوا لقولهم ذلك بقوله:**(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [سورة الزمر: ٦٨]"**

روى الترمذي :

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا الصُّورُ ؟ قَالَ : " قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ ".

هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَقَدْ رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، وَلَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ.))

وروى الترمذي أيضا :

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ ". فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ : " قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ".)) هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ

{وعرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100)}

ذكر ابن كثير في تفسيره " يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ: يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا، لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنِ ابن مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمام، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ [يَجُرُّونَهَا]

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: **﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾** أَيْ: تَعَامَوْا وَتَغَافَلُوا وَتَصَامُّوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزُّخْرُفِ: ٣٦]** وَقَالَ هَاهُنَا: **﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾** أَيْ: لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

ثُمَّ قَالَ **﴿أَفَحَسِبَ(٤) الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾** أَيِ: اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصِحُّ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ؟ **﴿كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٨٢]** ؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلًا "

وقال القرطبي في : " **قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أَيْ ظَنَّ. وَقَرَأَ عَلِيٌّ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابن مُحَيْصِنٍ: **"أَفَحَسِبَ"** بِإِسْكَانِ السِّينِ وَضَمِّ الْبَاءِ، أَيْ كَفَاهُمْ. **(أَنْ يَتَّخِذُو عِبادِي)** ١٠ يَعْنِي عِيسَى وَالْمَلَائِكَةَ وَعُزَيْرًا.

(مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ) ١٠ وَلَا أُعَاقِبُهُمْ، فَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَى، أَفَحَسِبُوا أَنْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ.

(إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا) "

قوله تعالى: { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104)أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105) }

أورد الطبري في تفسيره : " عن عليّ بن أبي طالب، أنه سئل عن قوله **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالا﴾** قال: هم كفرة أهل الكتاب، كان أوائلهم على حقّ، فأشركوا بربهم، وابتدعوا في دينهم، الذي يجتهدون في الباطل، ويحسبون أنهم على حقّ، ويجتهدون في الضلالة، ويحسبون أنهم على هدى، فضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ثم رفع صوته، فقال: وما أهل النار منهم ببعيد."

وقال رحمه الله " يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، الأخسرون أعمالا الذين كفروا بحُجج ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه **﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾** يقول: فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب ينفع أصحابها في الآخرة، بل لهم منها عذاب وخزي طويل **﴿**فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا**﴾** يقول تعالى ذكره: فلا نجعل لهم ثقلا. وإنما عنى بذلك: أنهم لا تثقل بهم موازينهم، لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة، فتثقل به موازينهم."

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا (١٠٦)﴾

قال الطبري :" يقول تعالى ذكره: أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله، واتخاذهم آيات كتابه، وحجج رسله سُخْريا، واستهزائهم برسله."

وأخيرا أذكر أني وأنا شاب صغير كلمت نصرانيا في التوحيد نافيا أن يكون لله ولد فصرخ غاضباً هذا كفر ، سبحان الله توحيد الله كفر ، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيرا ، وأنا في الطريق للمسجد الأقصى اليوم رأيت امرأة نصرانية طاعنة في السن تسير وهي تضم الى صدرها صليبا عليه تمثال المسيح بدعواهم وابتسامة السذاجة تعلو محياها ، ومنذ أيام احتفل النصارى بعيدٍ لهم وساروا جماعات وهم يطبلون ويصرخون ويزغردون ، والضحكات تملؤ وجوههم ظانين أنهم يحسنون صنعاً ، فتذكرت قول الله فيهم **((قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106)))** ، والحقيقة هي أن الحق لا يكون مع أهل الكذب والهوى والاستهزاء بالرسل ، الذين يريدون للحق أن يخضع لهم ، لا أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ، كفروا وكذبوا مع وضوح الدلائل ، وظهور الحجج عليهم ، وتمادوا بعد ذلك بالسخرية والاستهزاء ، والغريب والعجيب في حالهم أنهم يرون أنهم يحسنون صنعاً ، فأي إحسان متوهم لديهم ، وأي تكبر عن اتباع ما فيه هداهم ونجاتهم ، أعاذنا الله من شرورهم ، وشر مآلهم .

قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا(107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108)قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110) } الكهف

قال الطبري في تفسيره " يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقرّوا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته، كانت لهم بساتين الفردوس "

وقال الشوكاني " قالَ المُبَرِّدُ: الفِرْدَوْسُ فِيما سَمِعْتُ مِن كَلامِ العَرَبِ الشَّجَرُ المُلْتَفُّ والأغْلَبُ عَلَيْهِ العِنَبُ.

واخْتارَ الزَّجّاجُ ما قالَهُ مُجاهِدٌ: إنَّ الفِرْدَوْسَ البُسْتانُ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ، وقَدْ تَقَدَّمَ بَيانُ النُّزُلِ، وانْتِصابُهُ عَلى أنَّهُ خَبَرُ كانَ.

والمَعْنى: كانَتْ لَهم ثِمارُ جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا مُعَدًّا لَهم مُبالَغَةً في إكْرامِهِمْ. وانْتِصابُ خالِدِينَ فِيها عَلى الحالِ، وكَذَلِكَ جُمْلَةُ **﴿لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا﴾** في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلى الحالِ، والحِوَلُ مَصْدَرٌ أيْ: لا يَطْلُبُونَ تَحَوُّلًا عَنْها؛ إذْ هي أعْزُ مِن أنْ يَطْلُبُوا غَيْرَها، أوْ تَشْتاقَ أنْفُسُهم إلى سِواها."

وفي الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا ". فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى

الْجَنَّةِ - أُرَاهُ : فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ". قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ ، عَنْ أَبِيهِ : " وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ".

وقوله :" **(وجلس في بيته)** فيه تأنيس لمن حرم الجهاد وأنه ليس محروما من الأجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة وإن قصر عن درجة المجاهدين. " "قوله: **(أوسط الجنة وأعلى الجنة)** المراد بالأوسط هنا الأعدل والأفضل كقوله تعالى: **{ وكذلك جعلناكم أمة وسطا }** فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد، وقال الطيبي: المراد بأحدها العلو الحسي وبالآخر العلو المعنوي. وقال ابن حبان: المراد بالأوسط السعة، وبالأعلى الفوقية " كذا في فتح الباري .

وروى البخاري عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ. فَقَالَ لَهَا : "هَبِلْتِ ؟ أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى ".

قَالَ قَتَادَةُ : وَالْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا. والربوة: ما ارتفع من الأرض، والمراد: أشرف الجنة وأفضلها.

أما عن مناسبة قول الله تعالى : **{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109)}**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلْيَهُودِ : أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا : سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ، فَنَزَلَتْ : **{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }**. قَالُوا : أُوتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا، أُوتِينَا التَّوْرَاةَ،

وَمَنْ أُوتِيَ التَّوْرَاةَ ؛ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :**{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ }**.

قال ابن الجوزي رحمه الله : "ومَعْنى الآيَةِ: لَوْ كانَ ماءُ البَحْرِ مِدادًا يُكْتَبُ بِهِ. قالَ مُجاهِدٌ: [والمَعْنى]: لَوْ كانَ البَحْرُ مِدادًا لِلْقَلَمِ، والقَلَمُ يَكْتُبُ. قالَ ابْنُ الأنْبارِيِّ: سُمِّيَ المِدادُ مِدادًا لِإمْدادِهِ الكاتِبَ، وأصْلُهُ مِنَ الزِّيادَةِ ومَجِيءُ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ."

وجاء في التفسير لابن كثير " يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لَوْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا لِلْقَلَمِ الَّذِي تُكْتَبُ(١) بِهِ كَلِمَاتُ رَبِّى وَحِكَمُهُ وَآيَاتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، **﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾** أَيْ: [لَفَرَغَ الْبَحْرُ](٣) قَبْلَ أَنْ يُفْرَغَ مِنْ كِتَابَةِ ذَلِكَ **﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾** أَيْ: بِمِثْلِ الْبَحْرِ آخَرَ، ثُمَّ آخَرَ، وَهَلُمَّ جَرًّا، بُحُورٌ تَمُدُّهُ وَيُكْتَبُ بِهَا، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٧]** .

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَثَلَ عِلْمِ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ الْبُحُورِ(٤) كُلِّهَا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ: **﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾** .

يَقُولُ: لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا [لِكَلِمَاتِ اللَّهِ] ، وَالشَّجَرُ كُلُّهُ أَقْلَامٌ ، لَانْكَسَرَتِ الْأَقْلَامُ وَفَنِيَ مَاءُ الْبَحْرِ، وَبَقِيَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ قَائِمَةً لَا يُفْنِيهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدُرَ قَدْرَهُ وَلَا يُثْنِيَ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ، إِنَّ رَبَّنَا كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ ، إِنَّ مَثَلَ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، كَحَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ [كُلِّهَا] ."

وفي آية أخرى : ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان ٢٧]

يقول الإمام الرازي رحمه الله : " ثُمَّ إِنَّ الآيَةَ فِيها لَطائِفُ.

الأُولى: قالَ: ﴿**ولَوْ أنَّما في الأرْضِ مِن شَجَرَةٍ أقْلامٌ**﴾ وحَّدَ الشَّجَرَةَ، وجَمَعَ الأقْلامَ، ولَمْ يَقُلْ ولَوْ أنَّ ما في الأرْضِ مِنَ الأشْجارِ أقْلامٌ، ولا قالَ: ولَوْ أنَّ ما في الأرْضِ مِن شَجَرَةٍ قَلَمٌ، إشارَةً إلى التَّكْثِيرِ، يَعْنِي ولَوْ أنَّ بِعَدَدِ كُلِّ شَجَرَةٍ أقْلامًا.

الثّانِيَةُ: قَوْلُهُ ﴿**والبَحْرُ يَمُدُّهُ**﴾ تَعْرِيفُ البَحْرِ بِاللّامِ لِاسْتِغْراقِ الجِنْسِ، وكُلُّ بَحْرٍ مِدادٌ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿**يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ**﴾ إشارَةٌ إلى بِحارٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ، يَعْنِي لَوْ مُدَّتِ البِحارُ المَوْجُودَةُ بِسَبْعَةِ أبْحُرٍ أُخَرَ، وقَوْلُهُ: ﴿**سَبْعَةُ**﴾ لَيْسَ لِانْحِصارِها في سَبْعَةٍ، وإنَّما الإشارَةُ إلى المَدَدِ والكَثْرَةِ ولَوْ بِأَلْفِ بَحْرٍ، والسَّبْعَةُ خُصِّصَتْ بِالذِّكْرِ مِن بَيْنِ الأعْدادِ؛ لِأنَّها عَدَدٌ كَثِيرٌ يَحْصُرُ المَعْدُوداتِ في العادَةِ "

وأورد الطبري في تفسيره " **عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد، أرأيت قوله: ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْم إلا قَلِيلا﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: "كُلا"، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كلّ شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنَّها في عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ وَعِنْدَكُمْ مِنْ ذلكَ ما يكْفِيكُمْ"، فأنزل الله عليه فيما سألوه عنه من ذلك ﴿وَلَوْ أنَّما في الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾ أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل."**

سبحان الله العليم الحكيم ، سبحان الله الذي لا يحيط بعلمه وعجائبه إنس ولا جان ، وما علوم الخلق التي علمهم الله إياها من أولهم إلى آخرهم إلا كمثل قطرة في بحر من علم الله ، يكفيك أن تتصور أن البحار بمجموعها لو تحولت إلى مداد كالحبر ، والشجر بمجموعها جعلت منها أقلام لعجزت أن تكتب علم الله ولقصرت وتكسرت دون علمه وكلماته ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموت والأرض إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

يقول إبن عاشور في" **قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم يُوحى إلَيَّ أنَّما إلَـهُكم إلَهٌ واحِدٌ فَمَن كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَدًا﴾** اسْتِئْنافٌ ثانٍ، انْتَقَلَ بِهِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى وأنَّهُ لا يُعْجِزُهُ أنْ يُوحِيَ إلى رَسُولِهِ بِعِلْمِ كُلِّ ما يَسْألُ عَنِ الإخْبارِ بِهِ. إلى إعْلامِهِمْ بِأنَّ الرَّسُولَ لَمْ يُبْعَثْ لِلْإخْبارِ عَنِ الحَوادِثِ الماضِيَةِ والقُرُونِ الخالِيَةِ. ولا أنَّ مِن مُقْتَضى الرِّسالَةِ أنْ يُحِيطَ عِلْمُ الرَّسُولِ بِالأشْياءِ فَيَتَصَدّى لِلْإجابَةِ عَنْ أسْئِلَةٍ تُلْقى إلَيْهِ، ولَكِنَّهُ بَشَرٌ عِلْمُهُ كَعِلْمِ البَشَرِ أوْحى إلَيْهِ بِما شاءَ إبْلاغَهُ عِبادَهُ مِنَ التَّوْحِيدِ والشَّرِيعَةِ. ولا عِلْمَ لَهُ إلّا ما عَلَّمَهُ رَبُّهُ كَما **قالَ تَعالى: ﴿قُلْ إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحى إلَيَّ مِن رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣]** . فالحَصْرُ في قَوْلِهِ ﴿إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قَصَرَ المَوْصُوفَ عَلى الصِّفَةِ وهو إضافِيٌّ لِلْقَلْبِ. أيْ ما أنا إلّا بَشَرٌ لا أتَجاوَزُ البَشَرِيَّةَ إلى العِلْمِ بِالمُغَيَّباتِ."

ويقول الإيجي في تفسيره جامع البيان " **﴿فَمَن كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ﴾** يخاف المصير إليه أو يأمل لقاء الله ورؤيته **﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحًا﴾** وهو ما كان موافقًا لشرع الله **﴿ولا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَدًا﴾** أي لا يرائي بعمله بل لابد أن يريد به وجه الله وحده لا شريك له"

ولا يكون العمل صالحا حتى يكون موافقاً لشرع الله ، خالصا لوجهه سبحانه وتعالى ، فلا تقع أعمال الكفار من إحسان ومعروف في دائرة العمل الصالح ، لان الكفر والشرك يحول دون رفعها وقبولها عند الله ، وصدق الله إذ يقول: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر ٦٥]**

هذا وقم تمت بحمد الله تأملاتنا في سورة الكهف حتى يسر لنا الله أن نأتي على آخرها سائلين الله أن يتقبل منا الصواب ، وأن لا يؤاخذنا بما أخطأنا فيه الجواب ، وأن ينزل في هذه التأملات النور والسرور على عقول وقلوب من تأملها ، ويسعد

بالفهم لها من تناولها ، والله أسأل أن يستعملنا في طاعته ، وأن يتغمدنا بواسع فضله ورحمته ، أشكر كل من تابعنا في هذه الرحلة ، ومن دعا لنا في ظهر الغيب من الإخوة ، وأطلب منهم الإعتذار على التقصير إن بدى ، والتطويل إن بدى منه الأذى ، ويعلم الله أني ما قصدت من الاختصار إلا الخفة ، ومن التطويل إلا الإفهام والقربة ، والله أسأل أن يكون لي بكم خير صحبة ، سترتم ما بدى من العيب بحلمكم ، وفضحتم ما بدى من الخير بفضلكم ، ولله الفضل جميعا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .